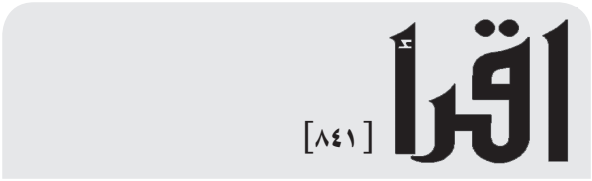

الشيخ
رفاعة الطهطاوي

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

رئيس مجلس الإدارة
م. رزق عبد السميع

المشرف العام على النشر
ورئيس التحرير
إيهاب الملاح

سلسلة اقرأ
صدر العدد الأول
سنة ١٩٤٣

تم التنفيذ بمركز زايد للنشر الإلكتروني بدار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة – جمهورية مصر العربية

أحمد أمين، أحمد أمين ابن الشيخ إبراهيم الطباخ، 1878 - 1954.

الشيخ رفاعة الطهطاوى: (مؤسس النهضة العلمية الحديثة) / أحمد أمين.

– القاهرة: دار المعارف، 2024.

112 ص، 5 .16 سم.

تدمك 8 9503 02 977 978.

1 – المصلحون الاجتماعيون.

2 – المصلحون المصريون.

3 – رفاعة الطهطاوى، رفاعة رافع بن بدوى، 1801 - 1873

أ – العنوان.

تصنيف ديوى: 923.6

رقم الإيداع: 26669/ 2024

رقم أمر التشغيل: 1/2024/99

رقم الكونجرس: 6 - 84049 - 01 - 2

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى طريقة كانت إلا بعد الحصول على تصريح كتابى من دار المعارف.

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

اقرأ

الشيخ رفاعة الطهطاوي

(مؤسس النهضة العلمية الحديثة)

أحمد أمين

أكتوبر ٢٠٢٤م

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

اقرأ
إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها، لم يفكروا إلا فى شىء واحد، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية. وأن ينتفعوا، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها.
طه حسين
دار المعارف
أحلام شهرزاد – العدد الأول من سلسلة اقرأ الشهرية صدر عام ١٩٤٣

قبل أن تقرأ

يسعدنا أن نقدم لقرائنا الأعزاء، وجمهور سلسلة (اقرأ) بالأخص، هذا العدد "الممتاز" من سلسلتنا العريقة، ولا يأتي وصفه هذا من باب الاعتباط أو التزيد أو المبالغة، إنما هي الحقيقة لا نحيد عنها فامتيازه يعود إلى وجوهه جميعًا؛ موضوعًا وتأليفًا ومناسبة، فهو "ممتاز" بموضوعه ومادته التي تأتي لتقدم تعريفا وتأريخا موجزا ومكثفا لجدنا الرائد المؤسس الشيخ الجليل رفاعة رافع الطهطاوي الذي أحضر لنا النور والمعرفة والبحث عن التقدم في بواكير النهضة العربية الحديثة..

و"ممتاز" بمؤلفه العلامة والمثقف النهضوي الكبير أحمد أمين (١٨٨٦-١٩٥٦) صاحب الموسوعة الشهيرة (فجر الإسلام، وضحى الإسلام، وظهر الإسلام)، ثم وليس آخر جوانب الامتياز، "ممتاز" للمناسبة التي

آثرنا أن ننشر فيهـا هذا النص النادر والقيم في الآن ذاته، وهي ذكرى ميلاد الشـيخ رفاعة الطهطاوي التي تحل في ١٥ أكتوبـر من كل عام. (ولـد الطهطاوي في ١٥ أكتوبر ١٨٠١، وتوفي في مايو ١٨٧٣).

***

تمثـل الفصـول التالية من هـذا الكتاب، سلسـلة من المقـالات التـي نشرها أحمد أمـين في مجلتـه (الثقافة) على سـت حلقات، جمعها في الجزء الخامس مـن كتابه الباذخ «فيـض الخاطـر» (في عـشرة أجـزاء). وقـد ترجَـم فيها للشـيخ رفاعة الطهطـاوي معتبرًا إياه "مؤسـس النهضة العلمية الحديثة".

وقـد لفتني أنـه لم يضمن هذه المقـالات الممتازة كتابه القيـم «زعـماء الإصـلاح في العصر الحديـث» الذي جمع فيهـا مقالاته المشـابهة ودراسـاته المعمقة عمـن اعتبرهم أو قيـم أعمالهم بوصفهم "زعـماء الإصلاح"، وقد أعياني البحـث عن السـبب الذي من أجلـه لم يضمن أحمد أمين

مقالاتـه عن الطهطاوي كتابـه هذا، وإن كنت أرجح أنها سـقطت مـن باب السـهو أو لم ينتبه لها حـين جمع فصول كتابه «زعماء الإصلاح»، والله أعلم.

أول ما لفت نظري في هذه الفصول الرائعة أنها كُتبت بمحبـة عارمة للشـيخ وتقديـر مخلص وعميـق لإنجازه العظيـم وريادتـه الفـذة، كـما تميـزت بمعـاصرة المؤلف لأبناء الشـيخ رفاعة، واتصاله المبـاشر بأفراد من تلاميذه والمقربـين منه، ولا ننسـى أن أحمد أمين قـد ولد بعد وفاة رفاعـة بثلاث عشرة سـنة فقط، وهذا القـرب من دوائر معارف الشـيخ والمتصلين به اتصالًا قريبًا ومباشرًا ربما لم يتوفر لكثيرين ممن كتبوا عن رفاعة الطهطاوي بعد وفاته بعقـود، فضلًا على انفراد أحمد أمين برواية تفاصيل دقيقة في سـيرة رفاعة وحياته الشـخصية والعملية على السواء أظن أنها لم تتوافر في سـيرة أو ترجمة أخرى للشـيخ رفاعة على كثرة ما كتب عنه خلال المائتي سنة الماضية..

وتدين مصر، بـل يدين العالمان العربي والإسـلامي،

للطهطاوي بأكبر فضل وأعمقه في إحداث حركة التغيير الثقافي الذي غير وجه الحياة فيها، ومن ثم في العالم العربي كله. كان واحدًا من المقربين إلى شيخه الأجل والأثير حسن العطار (١٧٦٦-١٨٣٥)، ذلك الشيخ الذي اقترب من علماء الحملة الفرنسية على مصر، وأبصر امتلاكهم لعلوم غريبة عن الواقع العربي المعاصر، وإن لم تكن أصولها غريبة عن تراث الأجداد، فأدرك أن التصدي للتحدي المفروض لا بد له من تغيير جذري عميق وشامل، تمتلك فيه الأمة وبه أسلحة هؤلاء الخصوم، وعبر عن ذلك في كلماته الموجزة: «إن بلادنا لا بد أن تتغير، وأن يتجدد بها من العلوم والمعارف ما ليس فيها!»، وهو ما حققه تلميذه النجيب وابنه في المعرفة والثقافة الشيخ رفاعة الطهطاوي الذي صار بحق "أبا النهضة والتنوير والتحديث" في مجرى الحياة الفكرية والثقافية الحديثة.

فهو أبو الديمقراطية المصرية الحديثة، وأبو الصحافة

المصرية في العصر الحديث، وأول من نادى بتعليم المرأة، وتحريرها من أسر الجهل والتقاليد البالية، وإليه يرجع الفضل في بعث فكرة "الوطنية المصرية"، وتطرّق إلى فكرة "المواطنة" كأساس للمساواة بين المواطنين في البلد الواحد، تحت مظلة الدستور والقانون، دون النظر إلى الدين أو الجنس أو العرق.

وهو، في الوقت ذاته، العالم الأزهري المعمم الذي سعى إلى الكشف عن المضمون التقدمي والحضاري للإسلام، ومطابقته لروح العصر وكل عصر، وبما أعطاه من مكانة كبرى للعقل والاجتهاد في شئون الحياة؛ إذ دعا إلى فهم الدين فهمًا عقلانيًا مستنيرًا، وكان منطلقه في ذلك أن القيم الخالدة للإسلام تستوعب كل تطور لمصلحة الإنسان متى فهمنا الدين الحنيف على وجهه الصحيح.

وكان الطهطاوي في كل ما قدّم من خدمات ومساهمات جليلة لهذا الوطن، إنما يصدر من منظور

نفسٍ قـادرة على التحليـل والفرز واسـتيعاب الجديد في إطـار الثقافـة التقليديـة الراسـخة، وذلـك بالبحث عن أوجـه التماثل في التراث مـع العنـاصر الإيجابية من تلك الحضـارة الحديثة، وفي بعـض الأحيان بالتفسـير الجديد (تقديم قراءة جديدة) لذلك التراث القديم.

***

وأخيرًا.. فإننا بهذا الكتاب -والكتب المقبلة بمشـيئة الله- نحـاول أن نحتـذي مسـار "اقرأ" ودروبهـا الثقافية والمعرفيـة، كما رسـمها وحدد غرضهـا صاحب فكرتها، وسيُدهش القارئ الكريم عندما يعرف أن اسمها "اقرأ" قـد جاء باقتراح من مؤلفنا أحمـد أمين، وكتب لها الكلمة الافتتاحيـة طـه حسـين، وصـدر أول أعدادهـا بعنـوان «أحلام شهرزاد» له أيضًا.

كـما أن هيئة تحرير السلسـلة كانت تتكـون من أعلام العصر، ويكفي أن نقول إن العقاد كان محررًا للسلسلة في أعوامها الأول، وكان من ضمن هيئة التحرير، بالإضافة

إلى طه حسين والعقاد، كل من فؤاد صروف، وأنطون الجميل..

إيهاب الملاح

(١)

حقًا إن «الله أعلم حيث يجعل رسالته»، هذه ألوف الطلبة في المدارس، وهذه ألوف المجاورين في الأزهر، من منهم سيكون النابغة العظيم، والزعيم الكبير، والمصلح الخطير؟ لا ندري، كلهم يتعلمون وأكثرهم يجدّون، ولكن الحكم بالنبوغ والقيادة والزعامة عسير على المتنبئين.

تقيس بمقاييس الامتحان ثم يظهر خلل حكمك، فقد يكون أول ناجح في الامتحان أول خائب في الحياة؛ وتقيس بمقاييس الذكاء، فتحكم بأن هذا أذكى من امتحنت، ثم يخبو هذا الذكاء شيئًا فشيئًا، حتى ينعدم أو يكاد، أو يظل الذكاء حادًا ومع ذلك فلا نبوغ؛ وتحكم بالخمول على طالب، ثم يتطور فيكون قائدًا أو زعيمًا. إنما عملنا أن نؤرخ النابغ بعد أن ينبغ، ونعلل نبوغه بأسرته أو أساتذته أو بيئته أو نحو ذلك من أسباب، ولكن كم

من أسرة خير من أسرته لم تنجب؛ وكم من أساتذة خير من أساتذته لم يُخرجوا مثله؛ وكم بيئة أصلح من بيئته لم تنجح في إعداد شبيه له، وكم كلها مجموعة لم تعدّ للحياة نابغة. في بيتي شجرتا مانجو، أما إحداهما فقالوا احفر لها فحفرت، وأت لها بتربة صالحة فأتيت، طعِّمها فطعَّمت، واختر لها الجهة المناسبة فاخترت؛ وأخرى رميت بذرتها رميًا، وتركتها للمصادفة تركًا، ولم أُعن بها أي عناية، ثم خابت الأولى حيث نجحت الثانية -إنما تنجح القواعد العامة -في التربية والاقتصاد والزراعة ونحو ذلك -في جمهرة الأشياء وعاديِّها، أما النوابغ فشواذ خرجوا من القواعد وندُّوا عن التعليل.

هذا «رفاعة» من أسرة مثلها كثير، وهو مجاور في الأزهر مثله كثير، وتهيأت له من الظروف ما تهيأ لكثير، ولكن لم يجرِ على يد أحد من الخير لأمته في ناحيته ما جرى على يده، ما السر في ذلك؟

علمه عند الله.

مـن أسرة في «طهطـا» تعتـز بـشرف نسـبها للرسـول، ويعزُّهـا الناس لذلك، عُـرف كثير من أفرادهـا بالعلم وتولى القضـاء والإفتـاء، وديارهـم منـازل الحكام ومـورد القصّاد، والحكومـة على نظام ذلك العهد تمدُّهم بالأراضي يسـتغلونها ولا يملكونهـا، وبالأرادب الكثيرة من القمح كل عام في نظير فتحهـم بيوتهم للضيـوف وذوي الحاجة؛ ولكن هذا العطاء لم يكـن -كما نقول اليوم- حقًا مكتسـبًا، ولكـن منحة عارضة، تتبع رغبة الوالي وشهوته، فهو إذا شاء أطلقها، وإذا شاء منعها -وكان من سـوء حظ «رفاعة» أو من حسن حظه، لا أدري- أن قبـض الـوالي يده عـما كان يعطـي أهله، فوقعـوا في الفقر، واضطر أبوه أن ينزح من البلد، ومعه رفاعة صبي صغير.

ولكن مـا لبث والده أن مات فقـيرًا، فعاد الصبي إلى طهطـا، ونـزل في أخواله، وشـاء الله أن يكـون في هؤلاء الأخـوال من يعلّمه ويعدّه للأزهـر، فحفظ بعض المتون بعد أن حفظ القرآن، ودرس شـيئًا من الفقه والنحو، ثم أرسل إلى الأزهر.

درس في الأزهـر كـما يـدرس كل مجـاور، وعاش فيه كـما يعيـش المجاور الفقـير، يقنـع بالجراية، ويأتـدم أكثر الأوقـات بالفول على اختلاف أنواعه ومشـتقاته، ولكنه مع هذا يعتز ببيته ونسبه.

شيء واحـد ميزه عن كثير مـن المجاورين هو اتصاله اتصـالًا وثيقًا بالشـيخ حسـن العطار، وكان هـذا رجلًا ممتازًا واسـع النظر، خبيرًا بالدنيا على قلة الخبيرين بها من علماء الأزهر في ذلك العصر، ولم يعجبه طريقة الأزهريين في الاقتصار على كتب النحو والفقه والتفسير والحديث، فضـم إلى ذلك نظرته في كتـب التاريـخ والأدب، وعُني عناية كبرى بالأدب الأندلسي يدرسـه ويحاكيه، ويأسف عـلى انحطـاط الأدب في عـصره، ويصـف شـعراء زمنه بأنهـم «اتخذوا الشـعر حرفة محترف، وسـلكوا فيه طريق معتسـف، فصرفوا أكثر أشـعارهم في المدّح لاستجلاب المِنَـح، حتـى مدحـوا أرباب الحـرف لجمـع الدراهم في الأسـفاط، وكان منهـم مـن يصنع القطعة من الشـعر في

مدح شخص ثم يغيرها في آخر، وهكذا، حتى يمتدح بها كثيرًا من الناس، وهو لا يزيد على أن يغير الاسم والقافية، وما أشبهه في ذلك إلا بمن يفرق أوراق الكُدْية، بين يدي صفوف المصلين يوم الجمعة في المساجد، وهكذا كان حال الشاعر، فلا يكاد أحد يتخذ وليمة، أو ختانًا، أو عرسًا، أو يبنى بناء أو يُرزأ بموت محب إلا وبادره بشيء من الشعر، قائمًا بالشيء النزر».

أما الشيخ العطار فجريًا على رأيه لم يحتفظ بشعره في المديح والهجاء مما قاله اضطرارًا، ورجا ألا يحفظ عنه إلا «ما لطف من النسيب، وعذُب من التشبيب، مما قد ولعت به أيام الشباب، حيث غصن الشبيبة غض، والزمن من الشوائب محض، ولأعين الملاح سهام بالفؤاد راشقة، وتثني قدود تظل لها أعين الأحبة رامقة.

ذاك وقت قضيتُ فيه غرامي من شبابي في سترة بالظلام ثم لما بدا الصباح لعيني من مشيبي ودعته بسلام»

وكان الشيخ حسن العطار قد أداه ظرفه ومعرفته

بالدنيا أن اتصل بالفرنسيين حين دخولهم مصر، ودرّس لبعضهم اللغة العربية، وأداه اختلاطه بهم أن يقف على كثير من معارفهم الواسعة فيبهره ذلك منهم، ويتعجب مما «وصلت إليه تلك الأمة من المعارف والعلوم وكثرة كتبهم وتحريرها وتقريبها لطرق الاستفادة» ويقارن بين ذلك وحالة العلم في الأزهر. ويرثي لحال مصر ويتوقع حصول ثورة علمية فيقول: «لا بد أن تتغير حال بلادنا ويتجدد لها من المعارف ما ليس فيها» ويزيد «العطار» سعة في عقله رحلته إلى الشام وإلى الآستانة، وقد أقام بها مدة طويلة وسكن في «اسكودره» وتزوج بها ثم عاد إلى مصر.

هذا هو الشيخ العطار الذي صار فيما بعد شيخ الأزهر، وهذا هو أستاذ الشيخ رفاعة الذي أثر فيه أثرًا غير شائع عند الأزهر بين إذ ذاك، من ميل إلى الأدب واطلاع على الكتب غير المتداولة، وكان التلميذ المحبوب عند شيخه العطار في بيته وفي قراءته الخاصة وفي دروسه العامة.

وفي الحق أن الأزهر كان فيه نبع صغير متسلسل يُعني بالتاريخ والأدب، بجانب ذلك النبع الكبير الذي يعني بعلوم اللغة والدين فقط، وكان من هذا النبع الصغير الشيخ الجبرتي المؤرخ الكبير، وتلميذه العطار، وتلميذه رفاعة.

ظل رفاعة يتلقى دروسه في الأزهر حتى أتمها وتصدى للتدريس فيه، ثم عين في منصب صغير هو واعظ للعسكر، ثم حدثت الحادثة الكبرى التي غيرت مجرى حياته ورسمت طريق نبوغه، ومكنته من أن يتولى زعامة النهضة، وهي بعثته إلى باريس.

تولى مصر محمد علي باشا وأراد أن ينهض بمصر في جيشها حتى يساوي جيش تركيا ويفوقه، ونهوض الجيش يحتاج إلى تعلم الفنون الحربية وإلى الهندسة وإلى الطب وإلى الصناعة؛ وأراد أن ينهض بالإدارة في تنظيم مالية الدولة وإدارتها وضبط دخلها وخرجها، ونهوض الإدارة يحتاج إلى رؤوس تضع النظام وأيد متعلمة تنفِّذه؛

ونظر فرأى أن كل ناحية من نواحي الإصلاح تصطدم بالحاجة إلى العلم والعلماء والمتعلمين، وأن ليس في البلاد من ذلك إلى الأزهر وملحقاته، فلم يكن إلا الكتاتيب في القرى والبلدان تُحفِّظ القرآن وتعلِّم القراءة والكتابة على نمط عتيق، وهذه الكتاتيب تُسْلم إلى الأزهر، وقد يكون في بعض المدن كالإسكندرية وطنطا معاهد هي صورة مصغرة من الأزهر، والأزهر لا يعلم إلا الدين واللغة العربية على نمط القرون الوسطى، وليس في البلاد كلها مدرسة تعلم الجغرافيا والتاريخ والرياضة والطب والهندسة والزراعة والطبيعة والكيميا.

المهندس هو المعمار الذي يتخرج من ممارسته للبناء؛ والطبيب هو الذي قرأ شيئًا من تذكرة داود، ومنهاج الدكان، ومارس الصناعة مع المجربين؛ والرياضي هو من حفظ «سورة الفدان»، وتعلم على الصراف أو نحو ذلك؛ وكل هذه أدوات لا تكفي لبناء نهضة، فما الحل؟

هناك حلول ثلاثة:

(١) إصلاح الأزهر وهو مركز التعليم والتعلم في البلاد، وتوسيع اختصاصه، فتجعل الدراسة الدينية شعبة، وبجانبها شعبة للرياضيات والطبيعيات، وشعبة للطب، وشعبة للهندسة الخ، وقد يبدو أن هذا الحل هو الحل الطبيعي، وفيه بقاء على مركز التعليم وإصلاحه وتوسيعه، ولكن دون ذلك أهوال، فالرأي العام الأزهري لا يرضى عن هذا التغيير، ويعده إفسادًا للأزهر، وإفسادًا للدين، والرأي العام الشعبي يتبعه ويؤيده، فيحدث ذلك ثورة في البلاد لا حاجة إليها، ثم إن هذا الطريق طويل، فإذا أعدت العدة لهذا التغيير، وانتظرت النتيجة، كان لا بد من مرور سنين، والإصلاح يتطلب السرعة -آه- ما كان أنفع هذا الوجه لو اتسع صدر الأزهر؛ وعقَل الناس!

(٢) والطريقة الثانية أن نترك الأزهر وشأنه، وننشئ مدارس مدنية من كتاتيب نظامية ومدارس ابتدائية وتجهيزية

وخصوصية كالطب والهندسة، ونقلد فيها المدارس الأوروبية ولا يكون لهذه المدارس أية صلة بالأزهر إلا بالمدرسين الذين يؤخذون منه لتعليم الدين واللغة العربية، ونستعين بالأوروبيين من فرنسيين وإيطاليين وإنجليز نأتي بهم ونضع في يدهم قيادة الحركة العلمية والصناعية، ونجعلهم يمرنون المصريين حتى ينهضوا بالعبء. ولكن عيب هذه الطريقة أن كثيرًا ممن نستوردهم من هؤلاء الأوروبيين قد لا يخلصون في عملهم، وقد ينظرون إلى مصلحة أممهم لا مصلحة من يعلمونهم، وقد يضيفون إلى تعليمهم قيامهم بوظيفة التجسس لأممهم؛ ثم المصريون المتعلمون على يدهم محال أن يبلغوا مبلغهم، فكلما طالت السلسلة بعدت عن الأصل.

(٣) وثالث الوجوه أن ننشئ المدارس التي ذكرنا ونأتي بأوروبيين يعلمون، ولكن نجعل هذا ضرورة نتخلص منها في أقرب وقت، فنبعث البعوث لأوروبا في مختلف العلوم والفنون، فيتلقونها من مصادرها؛

فـإذا عـادوا حلـوا بالتدريـج محـل الأوروبيـين، وبذلك نكسـب السرعة ونكسـب الإصلاح ونتقي خطر تغلغل الأجانب.

وعلى هذا الرأي الأخير اسـتقر الرأي، فأرسلت أول بعثـة هامة سـنة ١٨٢٦ إلى فرنسـا؛ وهم أربعـون طالبًا، بعضهم لدراسة الإدارة المدنية، وبعضهم لدراسة الإدارة الحربيـة، ومنهم لدراسـة العلوم السياسـية، ومنهم لقوة المياه، والعلـوم الميكانيكية، والهندسـة والمدفعية، وصب المعـادن، وصنـع الأسـلحة والكيميا والطـب، والتاريخ الطبيعي، والمعادن.

واختـير معهم عضو محافـظ، يذكِّرهم دائـمًا بالتقاليد القديمـة، ويصدهم عن الاندفاع في تيـار المدنية، فيكون إمامًـا لهـم في الصـلاة، ومظهـرًا مـن مظاهـر التقاليـد القديمـة، فـكان ذلك هـو «الشـيخ رفاعة» رشـحه لهذا أستاذه العطار.

وهـل فكروا حين عيَّنوه أن يكون عضـوًا أصيلًا يُعَد

لشيء، أو مجرد إمام تابع للرحلة يسد خانة من خاناتها؟

الظاهـر أنهـم أرادوه أولًا إمامًـا للبعثة، وهـذا عمله الأسـاسي، فـإن تعلـم وجـاء بـشيء فـلا بـأس، وليكن الترجمـة، ولكن أراد الله أن يكون الإمام في الصلاة للبعثة إمامًا للحركة العلمية في مصر.

في عصر يوم الجمعة ٨ من شـعبان سـنة ١٨/ ١٢٤١ مـن مـارس سـنة ١٨٢٦، كان شـابٌّ ملتحٍ معمم سـنُّه خمـس وعـشرون، ويقـدره مـن رآه بأربعـين، لأن حياته وحيـاة أمثالـه لم تعـرف الشـباب، يظهـر عليه الخشـوع الديني، والتواضع وطيبة القلب وخفة الروح، يسافر مع أعضـاء البعثة مـن مصر إلى الإسـكندرية، ولا تظن أنهم اتخذوا قطار الاكسبريس، فوصلوها بعد ثلاث ساعات، ولكنهم أخذوا زوارق صغيرة كل جماعة منهم في زورق، وسـارت بهم في النيل أربعة أيام بلياليها حتى وصلوا إلى الإسكندرية، إذ لم تكن مصر عرفت «الوابور» بعد.

(٢)

ركب (الشيخ) البحر من الإسكندرية، وقد خاف من البحر خوفين: خوفًا من ركوبه وقد سمع كثيرًا عن البحر وأهواله، وحفظ في الأزهر:

لا أركب البحر أخشى عليّ منه المعاطب
طين أنا، وهو ماء والطين في الماء ذائب

وقرأ في بعض الكتب قول الشاعر:

فيشتت الأفكار ما قاسى الورى
من هول هذا البحر عند ركوبه

وسمع قول العامة في البحر: «داخله مفقود، وخارجه مولود»، ولكنه استبشر خيرًا بأن بدء الرحلة كان عصر يوم الجمعة، وهو يوم مبارك، وظل يقرأ {وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا}، وقرأ بعد ذلك حزب البحر، واَعتمَد على الله واطمأن، وذكر قول الشاعر:

لّما ركبنا ببحر وكاد مَنْ خاف يَتْلفْ
على الكريم اعتمدنا حاشاه أن يتخلفْ

والخوف الثاني من دُوار البحر، وقد سمع عنه كثيرًا، ولكن شيخه العطار -وقد ركب البحر مرارًا- كان قد أوصاه بفائدة مجربة، وهي أن يتجرع عند نزوله البحر جرعات كبيرة من مائه الملح، ففعل.

***

أول ما لفت نظر «الشيخ» هذا المركب الفرنساوي، وطار خياله، مقارن بين السفينة التي ركبها من القاهرة إلى الإسكندرية، وهذه السفينة الفرنساوية؛ أما الأولى فسفينة قذرة، ولكنه لم يدرك قذارتها إلا لما ركب الثانية، كان يجلس فيها على الألواح، وكان يأكل حيث يجلس، وينام حيث يأكل، ومن حين لآخر يشعل «النوتي» حطبًا فيملأ الجو دخانًا، ويوقد ناره يطبخ فيها عدسه، في ماعون قد اسودَّ خارجه وداخله، وإذا تم تحلَّق هو وصحبه حوله وغاصوا بأيديهم فيه، ثم لعقوا أصابعهم بألسنتهم وحمدوا الله؛ وكانت موسيقى المركب لا تنقطع، فصياح لجمع شراع، وصياح لنشر شراع، وصياح لتحويل الدفة، وصياح

للمرور من «هويس»، وأوامر ونواه لا تنتهي، وشتائم وسباب كذلك لا ينتهي؛ والمركب غني غنى مفرطًا بالحشرات والزواحف من كل لون وشكل، تعين العابد على إمعانه في سهره، وطول تهجده، وكثرة استغاثته بالله.

هذا مركب النيل في مصر، وأما مركب البحر في الإسكندرية فأمره عجب، يقول «الشيخ»: «إن أهل المركب -من الفرنساوية- كانوا يحافظون على تنظيفها وإذهاب الوسخ ما أمكن، حتى إنهم يغسلون مقعدها كل يوم من الأيام، ويكنسونها في صف النوم كل نحو يومين، وينفضون الفراش وغيره، ويشممونها رائحة الهواء، ويزيلون أوخامها».

و«الشيخ» يعجب من هذا كل العجب، ويثير مشكلة من أصعب المشاكل، وهي «أن النظافة من الإيمان»، والفرنساوية نصارى، «ليس عندهم من الإيمان مثقال ذرة»، فما بال هؤلاء الفرنساوية النصارى نظفاء، وما بال المؤمنين المسلمين غير نظفاء؟

هذه أولى المشاكل.

وقد ظل «الشيخ» متأثرًا بهذه النظرة طول رحلته، يعجب من نظافة الفرنساوية في مراكبهم وفي بيوتهم وفي ملابسهم وفي شوارعهم، ويزداد عجبًا إذا بلغه أن أهل فرنسا -مع هذا- ليسوا أنظف أهل أوروبا، وأن «أهل الفلمنك (هولنده) أنظف من الفرنساوية إذ تجد غالب حاراتهم مبلطة بالحجر الأبيض المتعهَّد بالتنظيف، وبيوتهم مجمّلة من خارجها أيضًا، وشبابيكهم القزاز تغسل دائمًا، بل وحيطانهم الخارجية».

ويحز في نفسه أن المصريين ليسوا بذاك في النظافة، ويزعم «أن أهل مصر في قديم الزمان كانوا أعظم أهل الدنيا نظافة، ولكن لم يقلدهم ذراريهم». وما أظن ذلك، فعدم الاعتناء بهذا السلوك في مصر داء قديم، وهم -مع الأسف- من أقل الأمم عناية بالنظافة، في مآكلهم وملابسهم ومساكنهم وشوارعهم، ولم تبذل الحكومات المتعاقبة أي مجهود جدّي في حملهم على النظافة حتى

تصبح عادة، ومحل المقارنة لا يزال الآن كما كان منذ مائة عام في عهد «الشيخ رفاعة» ولا يغرنكم مائة بيت من الطبقة الأرستقراطية في المدن يعيشون في جو نظيف، فالحكم إنما يجب أن ينظر فيه لسائر الشعب؛ وحتى هؤلاء الأرستقراطيون لا يستطيعون أن يعيشوا نظفاء إذا كان من حولهم غير نظيف، فهم مضطرون لمعاملة خدم يخدمونهم، وباعة يبيعون لهم، وركوب ترام أو قطارات يسافرون فيها وهكذا.

وكما لا يستطيع بيت أن يعيش نظيفًا في حارة قذرة، كذلك لا تستطيع طبقة مهما احتاطت أن تعيش عيشة نظيفة نظافة تامة في جو قذر. إن الفقر المنتشر والبؤس الشائع يدفعان الأمة إلى إهمال النظافة، ولكن أهم من ذلك عدم تدخل أولي الأمر في نظافة الشعب، وتعويده أن يقوم النظافة قيمتها الحقة؛ فمن نعم الله أن تكاليف النظافة رخيصة إذا وجدت نفوسًا تأنف القذر.

مما يُعجب حقًا حساسية «الشيخ رفاعة» بالنظافة،

وتقويمه قيمتها الحقة، والتفاته الشديد الدائم إلى هذه الناحية -ولو خصصت الأمة نصف ميزانيتها أو أكثر لتأسيس الحياة الاجتماعية في مصر على أساس النظافة لعقلت.

***

هذا «الشيخ رفاعة» في السفينة الفرنسية «بعمته وجبته وقفطانه»، يتوضأ ويصلي إمامًا ببعض الطلبة المصريين، ويستظرف الشبان الفرنسيون هذا المنظر، فيجتمعون لمشاهدته؛ ويرون «الشيخ رفاعة» قسيسًا يصلي بالمسلمين ويؤمهم، فيحترمونه احترام قسيسهم، ويمنحونه قدرًا من إجلالهم، ويخصونه بمزيد عنايتهم.

ويزيدهم استظرافًا له أنهم يرونه عاكفًا على دراسة اللغة الفرنسية، بيده أجرومية فرنسية يقرؤها كما يقرأ كتاب الأجرومية في النحو العربي، ويحفظ ويمعن في الحفظ، وينطق ببعض كلمات تستخرج ضحك الفرنسيين من أعماق صدورهم، وأصعب شيء على «الشيخ» حرف

U الفرنسية فهي ثقيلة النطق على لسانه، فلا هي بالواو التي يعرفها، ولا هي بالياء التي يألفها، ولكنها وسط عجيب بين الواو والياء، يستصعبها فيتجمع لها قبل النطق بها، وإذا وقع نظره عليها من بعيد وهو يقرأ أدرك علامة الخطر.

ولقد أذكرني ذلك حكاية ظريفة، فقد كنت أتبادل مع سيدة إنجليزية جميلة تعلُّم الإنجليزية والعربية، وكان لها عينان تشعان الثقة والإخلاص والأمانة، وكان يصعب عليها النطق بالعين، فكانت تقول: «إن عينكم هذه تقتلني»، فأقول في نفسي: «وعينكم أيضًا تقتلني»!

***

سارت السفينة بالشيخ أربعة أيام، والبحر هادئ والجو جميل، وطمع الشيخ أن تكون رحلته كلها من هذا القبيل، ولكن ما هو إلا أن عصفت الرياح، واضطربت السفينة، وأخذتها أمواج كالجبال تعلو إلى أعلى القمة وتهبط في لمحة إلى أسفل القاع، ولعبت نفوس الراكبين

لعب الأمواج، فثارت ثورتها وهاجت هياجها. قال الشيخ: «فلازم أكثرنا الأرض، وتوسل جميعنا بالشفيع يوم العرض».

بعد مرور خمسة عشر يومًا، والبحر يهدأ ويهيج، والسفينة تسير وتلعب، والشيخ يصلي ويقرأ الأجرومية الفرنسية، وقفت السفينة على جزيرة صقلية (سيسليا)، ففرحوا بمنظر الأرض الباسم بعد منظر البحر العابس، وتذكر الشيخ قول الشاعر:

أنل قدمي ظهر الأرض إني
رأيت الأرض أثبت منك ظهرًا

ولكن أهل صقلية لم ينيلوه ظهر الأرض، ولم يمكنوه من النزول، إذ كانوا لا يسمحون بدخول البلد إلا بعد الحجْر الصحي خوف الوباء، وإنما كانوا يسمحون بالتعامل بالبيع والشراء، على شرط أن النقود التي يأخذها البائعون تغمس في إناء مملوء بالخل، حتى لا تنتقل العدوى.

وظلت السفينة خمسة أيام تتزود حاجتها من ماء وفاكهة وخضر.

لقد كان «الشيخ رفاعة» ظريفًا حقًا، أتدري ماذا أعجبه من كل ما حوله؟ صوت النواقيس ورناتها الموسيقية، وكانت الأيام أيام عيد، والنواقيس تدق فيدق لها قلب الشيخ. لو غيره سمعها من رجال الدين المتزمتين لاستعاذ بالله من صوتها وحوقل، وسمع منها صوتًا من أصوات الكفر يقبض صدره ويُعتم نفسه، ولكن شيخنا رحب الصدر، يتعشق الجمال حيث كان في عفة ودين.

ففي إحدى هذه الليالي الخمس دعا صديقًا من أصدقائه من أعضاء البعثة، ممن يعرف فيه الظرف والأدب، واقترح عليه أن يشتركا في إنشاء "مقامة" كمقامة البديع والحريري، ولكن ليس موضوعها التكدي ونصب الحيلة لاقتناص مال، وأما موضوعها ثلاثة أشياء، الأول حوار حول أن «الطبيعة السليمة تميل إلى استحسان الذات الجميلة مع العفاف»، والثاني

«سكر المحب من عيني محبوبة»، والثالث «تأثر النفوس، بـضرب الناقوس» إذا كان مـن يضربه ظريفًا. هكذا صبا الشـيخ وظـرُف، وأخذ ينشـئ الشـعر في مقامتـه في هذه المعاني، فقال في المعنى الأول:

أصبو إلى كل ذي جمال
ولست من صبوتي أخاف
وليس بي في الهوى ارتياب
وإنـــما شيمتي العفاف

وقال في المعنى الثاني:

قد قلت لما بدا والكاس في يده
وجوهر الخمر فيها شبه خدَّيه
حسبي نزاهة طـرفي في محاسنه
ونشوتي من معاني سحر عينيه

وفي المعنى الثالث يقول:

مذجاه يضرب بالناقوس قلت له:
مَنْ علّم الظبي ضربًا بالنواقيس

وقلت للنفس أيّ الضرب يؤلمكي
ضرب النواقيس أم ضرب النوى -قيسي

ثلاثة وثلاثون يومًا قضاها «الشيخ رفاعة» في البحر بين الإسكندرية ومرسيليا، منها خمسة أيام وقوفًا في صقلية، ويوم في نابلي، فكم نجح الإنسان أثناء قرن واحد في السرعة، ولما يقنع.

(٣)

رؤيتك أمة جديدة فتح عين لك جديدة، فالحكم على المسائل الاجتماعية يعتمد أكثر ما يعتمد على المقارنة، ولا مقارنة إذا اقتصر الإنسان على النظر إلى أمته وشؤونها، فنشأته فيها واعتياده من صغره رؤية مظاهرها يضعف قوة النقد عنده، ويعوقه عن إدراك مزاياها وعيوبها، فإذا هو رأى أمة أو أممًا غير أمته ازداد علمًا، وازداد قوة على النقد، وكان أقرب إلى صحة الحكم.

ومن أنفع هذا الباب النظرات الأولى للراحل، فهي تحصر وجوه الخلاف قبل أن يألفها ويعتادها، تكون مادة صالحة له إذا هو قيدها وتعمّق دراستها. فكم من الطريف أن نصغي إلى الأوروبي الذي يزور مصر لأول مرة ويحدثنا عن أثرها في نفسه، كذلك من الطريف أن نسمع مصريًا قُحًّا رأى أوروبا للمرة الأولى، وتحدث عما لفت نظره وأثار عواطفه.

فإذا رأينا الشيخ رفاعة الذي نشأ في صميم الصعيد، وشب في صميم القاهرة، وتعلم في صميم الأزهر يتحدث عن الباريسيين والباريسيات كان بلا شك حديثًا عجبًا.

ما الذي أعجبه في فرنسا وما الذي كرهه، وما الذي ود أن ينقل من ذلك إلى مصر، وما الذي حمد الله أن لا ينقل، ما الذي أحسه عند المقارنة بين مصر وفرنسا ووجوه ضعف مصر وقوتها؟ أصبح ذهنه مشغولًا دائمًا بكلمات خمس: مصر، الغرب، الإسلام، فرنسا، النصرانية، استخدمها في كل نظراته وأحكامه.

أعجبه من الباريسيين ذكاؤهم ودقة فهمهم، وسعة اطلاعهم وميلهم الشديد لمعرفة ما جهلوا، وقلة الأميين بينهم، ورغبتهم في الابتكار «فكل صاحب فن يحب أن يبتدع في فنه شيئًا لم يُسبق إليه، أو يكمل ما ابتدعه غيره» ثم حب الاستطلاع، «فهم يحبون الرحلة يستطلعون فيها الناس والبلاد، ويحبون الغرباء ليستمعوا منهم

أحـوال بلادهـم وعوائـد أهلهـم»؛ ثـم حـب التجديد، «فهـم يكرهون الاسـتمرار عـلى حال واحـد في الملبس، وفي الملاهـي، وفي التفكـير، وفي السياسـة». وأعجب ما أعجبـه منهـم حريتهـم في تفكيرهم والتصريـح بآرائهم في حكومتهـم، والجهـر بـما يعتقـدون في الديـن والعلـم والسياسـة، كما أعجبه جدًا المنشـآت العامة لنفع الفقراء والمرضى من مستشفيات وملاجئ.

وهـذه صفـات رآهـا فتمناها لبـلاده، ولكـن أين له الحريـة التي يتمتع بها أهل باريـس لينقد قومه وحكومته ويقول في صراحة ما يتمنى؟ إنما هو يلوِّح ويلمِّح.

وعجب جدًا من خفتهم وطيشـهم، وشدة انفعالهم، فسرعـان مـا ينتقلون من فـرح إلى حزن، ومـن حزن إلى فرح، وقد تربى هو تربية وقار وحشـمة، ورأى شـيوخه في الأزهـر جادين دائمًا، يمشـون متئدين وعليهم سـيما الرزانة، ويجلسـون كأن على رءوسهم الطير، ويتحركون بحسـاب، ويخطـون الخطـوة بحسـاب، فـما هـذه الخفة

في الحركة عند الباريسيين، وكيف يجري هذا الرجل صاحب المقام الرفيع والمركز الاجتماعي الخطير في الشارع كالأطفال، ليدرك موعدًا أو يلحق عربة؟ وكيف يفرطون -حتى رجالهم وعجائزهم -في اللهو واللعب، ويصرفون أموالهم في حظوظ نفوسهم، ويسرفون في ذلك على أنفسهم غاية السرف؟ إنهم لخَلْق عجيب، ولكنهم مع ذلك أهل جد لا يملون العمل، وسواء في ذلك غنيهم وفقيرهم.

لم تعجب الشيخ ماديتهم، فهم بخلاء يحبون المال حُبًّا جمًّا، فأين هذا من كرم العرب! وأين هذا من كرم «الصعايدة»؟ ومن مادية الفرنسيين مواساتهم بأقوالهم وأفعالهم لا بأموالهم، وهم لا يهبون ولا يُعيرون إلا إذا وثقوا بالمكافأة، ثم هم يحكّمون العقل حيث يحكَّم الدين، فهم أسوأ حالًا من المعتزلة في قولهم بالتحسين والتقبيح العقليين، وهم لا يؤمنون بالمعجزات ولا خوارق العادات، ويؤمنون بالسببية والمسببية إلى أقصى

حـد؛ فالأمة ترقـى بالعـدل وتضعف بالظلـم، وللعمارة أسـباب تنتجهـا لا محالـة، وللخـراب أسـباب تنتجه لا محالـة، ويعتقـدون -والعياذ بـالله- أن عقـول حكمائهم أعظم من عقول أنبيائهـم، وأكثرهم لا يؤمن بقضاء ولا قدر -لا. لا. هذا كله لا يعجبني.

وشيء آخـر لم يعجبـه أبـدًا، وهـو أحـوال النسـاء الباريسيات.. والرجال عندهم عبيد النساء، فأين هذا من الـشرق الجميل حيث النسـاء عبيد الرجـال (على أيامه)، وهـؤلاء النسـاء هفواتهن كثيرة، وقلـة عفافهن واضحة، وغَيرة الرجال عندهم ضعيفة، وخاصة في الطبقات العليا والسفلى، «وقد جُرب في بلاد فرنسا أن العفة تستولي على قلوب النسـاء المنسـوبات إلى الرتبة الوسـطى من النساء، دون نسـاء الأعيان والرعاع، فنسـاء هاتـين المرتبتين تقع عليهـن الشـبهة».. إلخ، فأيـن هذا مما عندنـا في الصعيد، حيث الغيرة عند الرجل تبلغ حد الجنون، وويل لمن سُمع عنها قالة سوء أو حامت حولها شبهة.

ولكن - والحق يُقال - في الباريسيين فضيلة، وهي عدم تغزلهم في المذكر، «فمن محاسن لسانهم وأشعارهم أنها تأبى تغزل الجنس في الجنس، فلا يحسن في اللغة الفرنسية قول الرجل عشقت غلامًا، فإن هذا يكون من الكلام المنبوذ، ولذلك إذا ترجم أحدهم كتابًا من كتبنا يقلب الكلام إلى وجه آخر، فيقول في ترجمة تلك الجملة عشقت غلامة أو ذاتًا ليتخلص من ذلك، فإنهم يرون هذا من فساد الأخلاق، والحق معهم، وذلك أن أحد الجنسين له في غير جنسه خاصة من الخواص يميل بها إليه، كخاصة المغناطيس في جذب الحديد -مثلًا- وكخاصة الكهرباء في جذب الأشياء، ونحو ذلك، فإذا اتحد الجنس انعدمت الخاصة، وخرج عن الحالة الطبيعية».

هذه بعض نظرات «الشيخ» إلى باريس أول ما نظر، وظلت هذه النظرات ثابتة عنده، لم تتغير إلا قليلًا، بل كانت الأيام تزيدها قوة؛ ولقد أراد يومًا أن يستوثق من

آرائه هذه فيعرضها ويسمع نقدها، فعرضها على اثنين من أصدقائه الفرنسيين، فأما أحدهما فنقدها بأن الشيخ نظر إلى بعض المسائل متأثرًا بأوهام المسلمين، ولعله يشير إلى نقد الشيخ رفاعة لعقيدة الفرنسيين في القضاء والقدر، وإنكار المعجزات، كما نقد نظرته إلى النساء الفرنسيات، وتعميمه الحكم على نساء فرنسا كلها بما شاهده من بعض نساء باريس، وأما الثاني فكان ظريفًا رقيقًا، وقال: لا يهمني ما حكمت ولكن يهمني ما اعتقدت، فما دمت تكتب ما تعتقد فلا ضرر، وإنما الضرر أن تشايع غيرك، ويحملك الحياء والخجل على أن تكتب أو تقول ما لا تعتقد.

***

تعَارضَ فكرتان في ذهن محمد علي باشا ورجاله، ولكل فكرة مزاياها وعيوبها، أمن الخير أن يسكنَ هؤلاء الطلبة المبعوثون في بيتٍ واحد وعليهم مشرفون، أو يفرقوا في «البانسيونات» الفرنسية؟

مزية الفكرة الأولى أنها أحفظ للطلبة من العبث، وأنها أحرى أن تجعل الطلبة محافظين على عوائدهم المصرية، فإذا رجعوا إلى بلادهم لم يكونوا قد بعدوا عنها كثيرًا فيفيدونها بعلمهم، ويندمجون فيها بسلوكهم، وعيبها أن الطلبة المصريين متى اجتمعوا تكلموا بالعربية، فلم يتقدَّموا في الفرنسية، وضعف علمهم بأحوال الفرنسيين وشؤونهم، مما قد يكون فيه فائدة لأمتهم؛ ومزية الفكرة الثانية طلاقة ألسنتهم وكثرة استفادتهم وتجاربهم، وعيبها تعرضهم لخطر التهتك، والانغماس في الشهوات، وتطبُّعهم بطابع الفرنسيين، وبعدهم بذلك عن أهلهم، وتقليد الفرنسيين في أحاديث السياسة والطعن في الحكومات، مما يسبب مشاكل لمصر في المستقبل.

حار بين الفكرتين، فاختار الأولى أولًا، فنزل المبعوثون أول الأمر بيتًا سمي «بيت الأفندية»، لا يخرجون منه ليلًا ولا نهارًا إلا يوم الأحد. وإذا خرجوا فبإذن من الضابط للبواب، ويأتي المعلمون الفرنسيون

إلى البيت ليعلموا الطلبة، كل طائفة متماثلة تدرس معًا، وتنفق عليهم الأموال عن سعة حتى كان يعدهم الفرنسيون من الأغنياء.

ثم لما تجلت عيوب هذه الطريقة وأحسوا عدم تقدم الطلبة في اللغة والعلم لجئوا إلى الطريقة الثانية، فوزع الطلبة على «البانسيونات» وفرقوا على المدارس كلٌّ وما يناسبه، وأطلق لهم شيء من الحرية ولكن في نظام دقيق؛ فيخرجون يوم الأحد، ويوم الخميس بعد الدروس، وبعض الأيام بعد العشاء، ولكن لا بد أن يعودوا إلى مساكنهم قبل الساعة التاسعة في الصيف، والثامنة في الشتاء؛ وفي كل شهر يمتحنون ويكتب تقرير عن كل طالب، ومقدار ما حصَّله ومدى تقدمه، ويكافأ من ظهرت نجابته بهدية من الكتب أو بعض الأدوات المدرسية؛ وهم ممنوعون منعًا باتًا أن يدوروا في الأزقة -وإذا عصى أحدٌ هذه الأوامر حبس وعذِّب، وإذا أتى بأفعالٍ غير لائقة أو شهد المعلمون أنه لا يرجى تقدمه

أعيد -حالًا- إلى مصر، والكل في ذلك سواء لا يُستثنى أحد.

ومحمد علي باشا بنفسه يطلع على التقارير الواردة، ويتصرف فيها بما يرى، ويرسل دائمًا إلى الطلبة يشجع المُجِدّ وينذر الكسول، ويراقب كل صغير وكبير. وفي آخر كل عام تأتي التقارير الوافية عن كل طالب، ويُمَرَّن كل طالب أثناء تعلمه على التأليف أو الترجمة، ويرسل ذلك لمصر للاطلاع عليه.

***

وضعت برامج مختلفة لتعليم كل طالب حسب دراسته الأولى، والغرض الذي من أجله أرسل. وكان البرنامج الذي وضع للشيخ رفاعة شاقًا غريبًا، لأنه أعد للترجمة من الفرنسية إلى العربية، وعليه أن يُعَدّ لترجمة الكتب في العلوم المختلفة، في الجغرافيا والتاريخ والطب والهندسة والتعاليم العسكرية، وهو لا يستطيع الترجمة في علم من العلوم إلا إذا ثقف فيه، فيجب أن يثقف هذه

الثقافـات المختلفة ليسـتطيع "التعريب" فيها، لذلك كان برنامجه الذي ألزم به ما يأتي:

يجب أن يتعلم الفرنسية، نحوها وصرفها وإملاءها قراءة وكتابـة، وقـد اسـتمر في ذلك ثلاث سـنين، وفي أثنـاء تلك السنوات يقرأ كتبًا معينة في فلسفة اليونان والتاريخ العام.

وعيِّن له كتاب في الحساب يقرؤه ويعرف مصطلحاته وكذلك في الهندسة.

واختير له كتاب واسع في الجغرافيا التاريخية والطبيعية والرياضية والسياسية، قرأه على أستاذ فرنسي.

ويتمـرَّن في كل ذلـك عـلى الترجمـة من الفرنسـية إلى العربية.

ويقـرأ كتابًـا في المنطـق الفرنـسي، وكتابًـا في المعادن، وكتبًا مختلفة في الأدب الفرنسي، فيقرأ لفولتير، وراسين، وروسو.

ويقرأ في السياسة، والحقوق الطبيعية، وروح الشرائع لمنتسكيو.

ويقرأ على الأستاذ كتابًا في علم الطبيعة وكتابًا في فن العسكرية.

ويقرأ المجلات العلمية والجرائد السياسية اليومية.

وهكذا كُلِّف كثيرًا، وقرأ هو لنفسه كثيرًا، وشغف بالكتب السياسية والاجتماعية يقرأ منها كثيرًا، إذ رآها تفتح أمامه أبوابًا واسعة.

وكان مسيو جومار مدير البعثة يحبه ويعطف عليه، لما رأى من جده ونبوغه، فأعانه وشجعه وسهل له مصاعبه.

ثم استفاد فائدة أخرى كان لها أثر كبير في حياته، ذلك أنه صادف في باريس أيام وجوده بها عَلَمين من أعلام الاستشراق، الأستاذ سلفستر ده سلس والأستاذ كوزين ده برسيفال؛ فأما الأول فمدير مدرسة اللغات الشرقية، واسع الاطلاع في اللغة العربية والفارسية، نشر كتبًا عربية كثيرة؛ وألّف شرح مقامات الحريري المتداول بين أيدينا، والمطبوع في مصر مرارًا، وألف في

النحـو العربي على طريقة جديـدة، وألف كتاب «الأنيس المفيـد، للطالب المسـتفيد» المطبوع في مـصر من غير ذكر لمؤلفه الخ؛ وكذلك الأسـتاذ كوزين نـشر كثيرًا، وترجم من العربية «صقلية تحت حكم المسـلمين» إلخ. وكلاهما كان بحَاثة، صادقهما الشـيخ رفاعة واسـتفاد منهما منهج المسـتشرقين في البحـث، واسـتفادا منه بعـض معارفه في اللغة العربية، فلما عاد إلى مصر قلدهما في بعض شـؤونهما كما سيأتي.

كان عليه أن يتم هذا البرنامج كله في خمس سـنوات، وما كان يسـتطيع ذلك لولا همتـه وصدق عزمه واتكاؤه على نفسـه، فقـد أفـرط في المطالعة بالليـل حتى ضعفت عينـه اليسرى، واحتاج إلى تطبيبهـا، ونصحه الطبيب ألا يطالـع فأبى؛ وصرف أكثر مرتبه الخاص في شراء الكتب التـي أغـرم بهـا، وفي الاسـتعانة بمعلمين فرنسـيين غير الذين رتَّبتهم له الدولة.

فإذا ملّ القراءة والدرس، اسـتجم بنوع من الدراسة

آخـر لا يقـل عـن القـراءة أهميـة، وهـو دراسـة الحالـة الاجتماعية في فرنسا، ومدى تقدمها وأسباب نهضتها، ما قوانينهـا، ما عاداتهـا، ما تجارتها، ما وسـائل اعتناء أهلها بصحتهـم، كيـف يعطفون عـلى مرضاهم؟ مـا حالاتهم الاقتصاديـة؟ مـا علومهـم وفنونهـم ونظـام التدريـس عندهـم؟ مـا هـي المؤسسـات العلميـة غـير المـدارس، كالمكتبـات والأكاديميـات؟ حتـى الملاهـي والتمثيـل وصـالات الرقـص بجميـع أنواعهـا -كل هـذا درسـه بإمعـان، وقيـده بالكتابـة، واختزنه في ذهنـه، وأجاله في عقله على أساس ما يمكن أن يصنع من ذلك في مصر.

وهـو في كل ذلـك محتفـظ بدينـه، محتفـظ «بعمتـه وقفطانـه» يهرول بهما في شـوارع باريس على كثرة ما لقي في ذلـك من عناء، فكلما مشـى لفت الأنظـار إليه بغرابة شـكله وطرافة زيِّه؛ ولا ينسى يومًا حكاية ظريفة وقعت له فتصرف فيها تصرفًا ظريفًا مثلها، إذ كان يسـير ليلة في زقـاق في باريس، فمـر بحانة لعبت الخمر بمـن فيها من

رجال ونساء، وصادف مرور الشيخ خروجهم وهم يصيحون «الشراب الشراب»، ولاحت التفاتة من أحدهم فرأى الشيخ يسير في «جبته وقفطانه» فصاح به: يا تركي يا تركي، وقبض على ثيابه، فجذبه الشيخ رفاعة بلطف وساقه إلى «بار» كان بالقرب منه، ودخل به وقال لصاحب البار: «من فضلك أعطني بهذا كأسًا».

صاحب البار: ليس بيع الرجال في بلادنا، إنما ذلك في بلادكم.

الشيخ رفاعة: وهل هذا رجل؟ وهل من يفعل بنفسه ذلك آدمي؟

وضحك الجميع وانصرف الشيخ.

***

في آخر السنوات الخمس عقد للشيخ الامتحان النهائي، حضره جمهرة من الأساتذة الفرنسيين، ومعهم مسيو جومار؛ وتقدم لهم الشيخ رفاعة ومعه اثنا عشر كتابًا أو رسالة ترجمها من الفرنسية إلى العربية أثناء إقامته،

ففحصها الممتحنون؛ ثم قُدمت له كتب عربية طلب منه أن يقرأ صفحاتها ويترجمها إلى الفرنسية شفاها وعلى البديهة؛ وأُحضرت كتب مترجمة من العربية إلى الفرنسية فأُعطي الفرنسيون الكتب الفرنسية والشيخ رفاعة الكتاب العربي وطلب إليه أن يقرأها في نفسه وينطق بترجمتها بالفرنسية، وقد أعجبوا بتفوقه، ولكن أخذوا عليه أن نطقه الفرنسي لم يصقل الصقل الكافي، وأنه في الترجمة أحيانًا يعبر عن الجملة الواحدة الفرنسية بجمل كثيرة عربية، وربما ترجم الكلمة بجملة فرارًا من المصطلحات، وربما غير مجازًا فرنسيًا بمجاز آخر عربي، وأنه يراعي روح المعنى أكثر مما يراعي حرفية اللفظ، ونصحوه أن يراعي ذلك في المستقبل، وأعلنوا نجاحه في اغتباط وفرح، وكتبوا تقريرًا مفصلًا لمحمد علي باشا يثنون عليه، ويبينون مدى نجاحه في كل ما عهد إليه، إلا الرسم، فقد تصلبت أصابعه ولم يرزق الخفة في يده، ويتنبأون له بمستقبل باهر في خدمة أمته بما يؤلِّف ويترجم.

إلى هنا كان الشـيخ قد أتم مرحلة الاستعداد، وفارق باريس إلى مصر ليحمل عبئه ويؤدي رسالته، وفي صدره هوى حبيبتيه مصر وباريس فيقول:

لئن طلقتُ باريسًا ثلاثًا
فما هذا لغير وصال مصر

فكل منهما عندي عروس
ولكن مصر ليست بنت كفر

(٤)

شـتان بين الشيخ راحلًا إلى باريس والشيخ عائدًا من باريـس، كان معصـوب العينـين، فعاد مفتـوح العينين؛ كان يـرى أن مـصر أم الدنيا. فـإذا هو يراها ذيـل الدنيا، ولكن يجب العمل لتكون رأسها، كانت دنياه هي الأزهر وحي الأزهر، فإذا دنياه الدنيا كلها في حاضرها وغابرها ومسـتقبلها، بـما شـاهد وبـما قـرأ مـن جغرافيـا وتاريخ وسياسـة واجتماع؛ كانـت غايته أن يكـون عالمًا، ومعنى العـالم في نظره أن يتقـن النحو والبلاغـة والأصول، فإن تظرَّف فَحِفْظُ شيء من الشـعر؛ وكان مثله الأعلى الشيخ الفضالي والشيخ القويسني، وأن يجلس على مقعد بجوار عمود من أعمـدة الأزهر وحوله الطلبة الكثيرون يشرح لهـم أغمض الجمـل وأعقد التراكيـب، فـإذا انتهى أقبل عليـه الطلبـة يتخاطفـون يـده لتقبيلها، فإذا هـو يرى في فرنسـا أن كلمـة «العـالم» المطلق لا مدلول لهـا، إنما هناك

عـالم جغرافيـا وعالم تاريـخ وهكذا، وأن شـيوخ الأزهر لم يعـودوا مثلـه الأعلى، فـإن علم الأزهر نقطـة من بحر العلم، وطريقة تعليمهم نقطة سـوداء في مناهج التعليم، وليـس مثله الأعـلى أن يجلس بجوار عمـود، ولكن مثله الأعلى ورسـالته الكبرى أن يغزو الجهل والأمية في مصر كلها، وأن يخلق فيها حركـة تعليم تقلب أوضاعها وتنير أذهانهـا، وتبصِّرهـا بالدنيـا وتفهمهـا أين هم لأنفسـهم وأيـن هـم مـن الأمـم الأخـرى -وكان يـرى الشـيوخ يتملقـون الولاة والأمـراء تملقًا رخيصًا ليسـتدروا منهم كيـس نقـود أو خلعة سـنية، فصار يـرى أنه لا يسـتطيع أن يكـف عن المدح، وإلا فسـد برنامجه، فليمدح لمشروع جليل، ولإنشاء مدرسة، ولعمل خيري، ولرسم الطريق للأمراء ليتوجهوا بأعمالهم نحو الخير العام.

وأخـيرًا كان يحس من نفسـه الضعـة إذا جالس واليًا وأميرًا أو عظيـمًا، وكان يحس النقص إذا جلس في مجلس يُتكلم فيه عن شـؤون الدنيا، فارتفعت نفسـه، فمن فخر

بلغة فهو يملك ناصية الفرنسية، ومن فخر بعلم دنيوي فليس يمكن أن يباريه، ومن فخر بمعرفة الدنيا وشؤونها فأين هو منه وقد قرأ جغرافية العالم وسياسته، وجالس أذكى الناس عقلًا وأرقاهم مدنية، وعاش في أوساط قد لا يبلغها كبير. وهكذا سمت نفسه وشعر بقوَّته في غير كبر ولا غرور، يرتفع عن بني قومه ولكن يأخذ بيدهم، ويحس قوّته فيصرفها في نفع أمته، ويحذق فهم التيارات السياسية في مصر، وعقلية الشعب وعقلية الولاة، فيعرف كيف يتجه بسفينته.

خمس سنوات في فرنسا جعلت منه إنسانًا آخر، ولكن كم من مئات ومن ألوف قضوا أعوامًا وأعوامًا في إنجلترا وفرنسا وألمانيا وعادوا نكبة على أوطانهم، ولم يفيدوها حتى بكفٍّ شرورهم عنها، وصدق الأثر: «الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام». ولو كان لنا في كل مجموعة من البعثة مبعوث مثل رفاعة لتغير وجه مصر.

***

كان من العادات الظريفة التي اندثرت أن يجتمع الجم الغفير من العلماء والأمراء والأغنياء والتجار في ليلة من ليالي رمضان في بيت السادات في «بِرْكة الفِيل»، ويجلس الشريف الحسيب النسيب وشيخ السادات مجلسه الفخم الوقور يمنح الرتب والألقاب لمن شاء من الزوّار، ولكن ليست رتبة «بك» ولا «باشا» ولا نحو ذلك، إنما هي ألقاب وكُنَى يستمدها من الوحي الصوفي والإلهام اللدُنّي، فهذا أبو الأنوار، وهذا أبو الوفاء، وهذا أبو البركات، وهذا أبو الخير؛ ففي ليلة من هذه الليالي الرمضانية كان من الزوار شيخنا الشيخ رفاعة، فتفرس فيه شيخ السادات، ونظر إليه بقلبه، ثم قال له: «اذهب فأنت أبو العزم»، وكذلك كان، وكانت كُنْية موفَّقة، فأبرز صفات «الشيخ رفاعة» عزمه.

***

عاد الشيخ رفاعة إلى مصر سنة ١٢٤٧هـ، وقد عرفه محمد علي باشا بما كتبه عنه مدير البعثة من تقارير، وعرفه

إبراهيم باشا حين قابله في الإسكندرية، لأنه سمع به حين زيارته باريس، ولأنه كان يعرف أسرته في طهطا، وقد عرف ما نكبت به من انتزاع ما في يدها من أطيان، وقطع ما يصرف لها من غلال، فأراد أن يكفِّر عن ذلك، فمنحه ٣٦ فدانًا في الخانكة (الخانقاه)، فكان ذلك مبدأ ثروته ونعمته -أرض لطيفة قريبة من القاهرة يستطيع الشيخ أن يديرها ويرفِّه عن نفسه فيها.

عيّنه محمد علي باشا مترجمًا في مدرسة الطب، وكانت بأبي زعبل، وكان ناظرها كلوت بك، وكانت محاولة أولية لمدرسة الطب أنشئت بجانب المستشفى هناك، وكان يؤخذ تلاميذها من المكاتب ومن الأزهر، لا يعرفون لغة، ولا يعرفون إلا القراءة والكتابة وقليلًا من الحساب الأوّلي، وكان المدرسون الذين يدرسون الطب إما فرنسيين أو إيطاليين، فكيف يكون التفاهم بين الطلبة والمدرسين؟ لا بد من مترجمين يعرفون العربية والفرنسية والإيطالية، فيلقي الأساتذة الدروس بلغتهم والطلبة

سـكوت لا يفهمون شـيئًا، فيترجمه المترجمون إلى العربية، ثم يشرح المترجمون للأساتذة ما ترجموا ليثق الأساتذة من صحة الترجمة، ثم يمليه المترجمون على الطلبة بالعربية، ثم يحفظه الطلبة، ومن أظهر التقدم من الطلبة واسـتطاع أن يفهم من الأسـاتذة بعض الشيء جعل مشرفًا على الطلبة الضعاف مساعدًا للأستاذ والمترجم.

وهؤلاء المترجمون أيضًا مشكلة أخرى، فهم طائفة من السـوريين أو الأرمن أو نحوهم مثل مسيو رفاييل ومسيو عنحوري، قد يجيدون اللغة الأجنبية، ولا يجيدون العربية؛ فاقتضى الأمـر أن يؤتى ببعض علـماء الأزهر لتصحيح ما يترجمه المترجمون، وسبَّب وجود علماء الأزهر مشكلة ثالثة، وهـي أن التشريح حرام، وهو يُعمل في السر، ويخشـى أن يطلع عليه علماء الأزهر فيفضحوا المدرسـة ويؤلِّبوا عليها الـرأي العام، وليس لهذه المشـكلة من عـلاج إلا أن يختار من الأزهر الشـيوخ المرِنون، كالشـيخ الدسـوقي والشيخ الهراوي، ويُرْجَوْن ألا يفشوا السر.

هذا هو الوضع للمدرسة أيام عين بها «الشيخ رفاعة» مترجمًا، فكان أول مترجم مصري يجيد العربية والفرنسية وله إلمام بالطب، وقد عين مرءوسًا للمسيو عنحوري، فلما رأى منه (مسيو عنحوري) هذه المقدرة تخلَّى له عن مكانه.

وعهد إلى الشيخ رفاعة إلى جانب الترجمة أن يعلِّم بعض الطلبة الإعداديين اللغة الفرنسية والجغرافيا، وصدر الأمر بأن يعطى مرتبًا على ذلك ١٢٢٣ قرشًا في الشهر، مع إضافات، كبدل انتقال ونحو ذلك. مرتب ضخم في ذلك العصر، فاثنا عشر جنيهًا كانت قدرتها الشرائية أكثر من ستين أو سبعين جنيهًا في عصرنا، حتى قبل أن يرخص ورق النقد.

ولهذا نرى الشيخ يتزوج بنت خاله الشيخ محمد الأنصاري، ويتبحبح في المعيشة، فيكون له بيت في «المهمشة» بالقرب من شبرا، وفيه حديقة لطيفة فيها أثر الذوق الفرنسي، وفي البيت جوارٍ وعبيدٌ من ملك

يمينـه -فلم يكن أبطل الرق بعـدُ- وفي ذلك أثر للذوق الشرقي.

عمل في مدرسـة الطب ما شاء الله أن يعمل، وأحس الطلبـة روحًا جديدًا في المدرسـة، ورقيًا في لغتهم اقتربوا به من أساتذتهم، وقرَّب إليه بعض خيار الطلبة يشجعهم ويمرنهـم ويَعُدُّهـم للبعثـة، وكان مـن هـؤلاء محمد علي باشـا البقلي -جراح مصر الشهير -فكان يقبِّل يد الشيخ كلما رآه، ويعدُّ نفسـه صنيعة مـن صنائعه، فلولاه ما نبغ، ولولاه ما كان مبعوثًا؛ بل أخذ الشيخ في هذه الفترة يضع الرسـائل في الطـب يسـاعد بها الطلبـة ويراجـع الكتب العربيـة القديمة من قانون ابن سـينا وتذكرة داود لوضع المصطلحات الطبية.

ولكن لم يلبث بهذه المدرسة إلا نحو سنتين، ثم صدر الأمـر بنقلـه مـن مدرسـة الطب بـأبي زعبل إلى مدرسـة «الطوبجيـة» بطـره، وكان ناظرهـا رجلًا أسـبانيًا اسـمه «سـاكورا» بك، واسـمه في الأصـل «الـدون أنطونيو ده

سيجويرا» عرَّبه الشيخ رفاعة إلى «ساكورا»، وكان في الأصل ضابطًا برتبة كولونيل في المدفعية، عهد إليه تأسيس هذه المدرسة وتنظيمها لتخريج ضباط للجيش وللبحرية، يؤخذ طلبتها من المكاتب، ويتعلمون بها الفنون العسكرية والحساب والجبر والهندسة ولغة أجنبية.

فعين الشيخ رفاعة ليترجم الكتب العسكرية والرياضية، بعد أن كان يترجم الكتب الطبية، وطلب إليه أن يترجم فن إحداث الجراح، بدل ما كان يترجم فن تضميد الجراح -فليكن -ها هو الشيخ يعكف على ترجمة كتاب في الهندسة يدرس في مدرسة «سانسير» بفرنسا، وها هو يقلب أيضًا الكتب القديمة في الهندسة يستخرج مصطلحاتها، وها هي مطبعة بولاق تطبعها وتوزعها على طلبة مدرسة الطوبجية.

ولكن الشيخ لم يعجبه مسيو ساكورا بك، ولم تحسن العلاقة بينهما. وتأتي سنة ١٢٥٠هـ، فيحدث في مصر

طاعـون شـنيع، ويكثـر الموتـى وتضطرب الأحـوال في القاهـرة، ويغلو السـعر حتى تكـون كيلة القمح بتسـعة قروش، فيسافر الشيخ بلا إذن إلى بلده طهطا.

مكث في بلده ستين يومًا، هل استراح فيها وسكن إلى أهله وأهـل بلده بعد غيبة طويلة؟ هـل فكّر في الطاعون وكثـرة الموتـى؟ هل صدَّه عـن العمل تضايقه من مسـيو سـاكورا؟ لا شيء مـن ذلك، هـا هو كتـاب في الجغرافيا أعجـب بقراءته لمـا كان في باريـس، وأعيـدت منه طبعة جديـدة أدخلـت عليـه تعديـلات جديـدة، وهـو كتاب ضخم واسـع مؤلفه «ملطـبرون» Malte-Brun دنماركي الأصـل، نفـي من بـلاده فأقـام في باريـس، فعكف على دراسـة الجغرافيا طول حياته، واعتصر منها مؤلفًا في ستة أجزاء ضخام، أقام في تأليفه تسعة عشر عامًا، وفيه أرقى المعلومات وأوسـعها عن العـالم (في عصره) لو ترجم إلى العربية لوسَّع من آفاق أهل العربية وفتح عيونهم للعالم.

في هذه السـتين يومًا دأب على ترجمة الجزء الأول منه،

وعاد به في يده، وقابل محمد علي باشا وقدمه إليه وشرح له قيمته، فشكره ومنحه منحة، وأنعم عليه بلقب صاغ، إذ كانت كل الرتب عسكرية، فأصبح «الصاغ رفاعة»؛ وشكا له من عمله في مدرسة الطوبجية ومن مسيو ساكورا، وقدم إليه مشروعًا لمدرسة الألسن وصف فيه برنامجها وما يصح أن تؤديه لمصر من الخدمة إذا أسست على أساس صحيح، وأنه هو أنفع لهذا العمل والإشراف عليه، فكان ذلك، ونقل من مدرسة الطوبجية إلى مدرسة الألسن، يؤسسها وينظمها ويتولى الإشراف عليها. وهنا أعطى القوس باريها وتجلت عظمته ومواهبه فيها.

ما مدرسة الألسن التي خلقها الشيخ رفاعة، وما الغرض منها؟؟

لقد عرف الشيخ رفاعة في باريس مدرسة اللغات الشرقية، أسِّست لدراسة لغات الاستشراق، وكان يسميها في كتابته مدرسة الألسن، لِمَا ذاع في العربية من اللسان العربي واللسان العجمي، ولما جرى على ألسنة

العامة: «يتكلم بالسبعة ألسن». ولكن موقف مصر في اللغات غير موقف فرنسا، فوجب أن تؤسس في مصر مدرسة للألسن تواجه مطالبها وتناسب موقعها.

لقد نجحت فكرة محمد علي باشا في البعثات، وعاد أعضاؤها يتكلمون الفرنسية، ويجيدون ما تخصصوا له من المسائل الفنية، ولكنهم لا يكفون للنهضة المصرية الواسعة النطاق، إن مصر محتاجة لمن ينقل لها خير ما وصل إليه العلم الحديث في كل فروعه، فلا بد من تكوين طائفة كبيرة من الشبان يحذقون العربية ولغة أخرى حية، وخاصة الفرنسية، وإلى ذلك يثقفون ثقافة فنية خاصة، هذا في الرياضة، وهذا في القانون، وهذا في الجغرافيا والتاريخ؛ حتى إذا عهد إليهم ترجمة كتاب كانوا مثقفين بعلمه ولغته، وهؤلاء المتخرجون على هذا النحو يستطيعون أن يقوموا بترجمة الكتب في الفروع المختلفة، ويصح أن يكونوا معلمين في المدارس التجهيزية والخصوصية، ويصح أن يكونوا موظفين في

مصالح الحكومة التي تحتاج إلى من يجيدون لغة إلى لغتهم الأصلية، فيكونوا نواة لنهضة صحيحة -إننا بالبعثة ننقل المصريين إلى أوروبا، وبهذه المدرسة ننقل علم أوروبا إلى مصر. الترجمة، الترجمة، هي أساس النهضة لمصر، وهي مبعثها من مرقدها، والفاتحة لعيونها، لقد تقدم العلم الإسلامي، بعد وضع أساس النهضة بالترجمة في العصر العباسي، فوجب أن تكون نهضتنا الحديثة مؤسسة على الترجمة الحديثة، ولهذا لقبوا محمد علي بالمأمون الثاني.

ثم في هذا العمل -إذا نجح- فائدة أخرى، وهي إيجاد عدد كبير ممن يحذق اللغات الأجنبية، فنستطيع بهم أن نستغني عن كثير من الفرنج الذين يحتلون هذه المناصب، كما نستريح من مشاكلهم.

فلنأخذ الطلبة من النابهين في المكاتب، وندرس لهم خمس سنوات أو ستًا اللغات العربية والفرنسية والتركية، ومبادئ الرياضيات، والتاريخ والجغرافيا، ولنختر لهذه الدراسة خير من عندنا من فرنسيين وترك وعلماء أزهر،

ولنخلـص النيـة في تعليم هؤلاء الطلبـة، فعليهم تتوقف النهضة، وهم معقد الأمل.

هذا هو مشروع مدرسـة الألسـن كما تصوره الشـيخ رفاعـة، وكما صـادق عليه محمد علي باشـا، وصدر الأمر بإنشـائها، وأعـدت عدتهـا، وفتحـت، وتـولى نظارتهـا «الشيخ رفاعة».

(٥)

مـن يظـن أن «خمارة شـبت» كما يسـميها العـوام، أو «فندق شـبرد» كما يسـميه المتعلمون اليـوم هو الذي كان مدرسـة الألسـن، حيث كان الشـيخ رفاعة ومسـاعدوه وتلاميـذه يخمِّـرون الخميـرة الأولى للنهضـة العلميـة والأدبية؟

ومـن يظن وهو يمر الآن على هـذا النزل أن له تاريخًا طويـلًا، وأن قـد تقلبت عليه أوضاع شـتى فتداول عليه الجـد والهـزل، واحتلتـه الأرسـتقراطية والديمقراطيـة، وكان أحيانًا حرما آمنًا لا يسـتطيع أن يقربه أحد، ثم كان كـبرج بابل يرطـن فيه بالفرنسـية والإنجليزيـة والعربية والتركيـة، وتـدوّي في أرجائـه اللغـات دويّ النحل، ثم أصبح مثابة لكل أرسـتقراطي عابـر. لقد كان بيتًا للأمير أحمد بك الدفـتردار زوج الأميرة نازلي هانم كريمة محمد علي باشا، ثم مدرسـة للألسن، ثم جعله محمد علي فندقًا

للإنجليز، ثم صار فندقًا لمن يشاء، وهكذا الأماكن «تشقى كما تشقى الرجال وتسعد»، فهذا البهو الفسيح كان يخطر فيه الشيخ رفاعة وحوله الطلبة يعرضون عليه مشاكلهم اللغوية، وأحيانًا يخطب فيهم فيجلجل صوته، ثم كان يجلجل فيه صوت الجازبند، يرقص على نغماته مهفهفو الشبان، مع الغيد الحسان.

***

سافر الشيخ إلى الأقاليم يفتش في المكاتب عن نجباء التلاميذ يختار منهم من يصلح ليكونوا تلاميذ لمدرسة الألسن، وكانت قد انتشرت هذه المكاتب في الأرياف، وأسست على نظام جديد، فيه شيء من الثقافة المدنية كالحساب وما إليه، وسميت «مكاتب الأرياف الأميرية» وبلغ عدد طلبتها خمسة عشر ألفًا، اختار «الشيخ» منهم خمسين، ولكن لوحظ أن أكثر من اختارهم من الصعيد، فهل كان هذا «محسوبية» من الشيخ وعصبية لأهل بلده وإقليمه؟ قد يكون ذلك، فالمحسوبية داء

قديـم، وكما يصح أن يفسر هذا التفسـير السيء يصح أن يفسر تفسـيرًا آخر نبيلًا، وهـو أن إقبال الناس على تعليم أبنائهـم كان ضعيفًـا، وكثير ممن تعلمـوا في ذلك العصر تعلمـوا بالإكراه، وكان من يؤخـذ ليتعلم يودِّع بالصياح والعويـل، كـما يودع من قبل في الجنديـة اليوم، وقد يقبل النـاس أن يتعلـم أبناؤهـم في مكاتـب بلادهـم، أمـا أن يسافروا إلى مصر بعيدين عن أنظارهم ولا يعرفون عاقبة أمرهـم، فهـذا مـا لا يقبلـون؛ والشـيخ رفاعـة صعيدي لـه في قومـه جـاه، وله في بلده وما حوله حسـن سـمعة، فالناس يطمئنون أن يسـلموا أولادهم لـه، وليس له من هـذه الوجاهة في الوجـه البحري ما لـه في الوجه القبلي، فلعـل علة كثـرة الصعايـدة في الدفعـة الأولى من تلاميذ مدرسـة الألسن، حتى إذا اطمأن الناس إلى هذه المدرسة رأينـا التلاميذ من الأقاليم المختلفة لا فرق بين صعيديِّهم وبحريِّهم.

خمسـون تلميذًا "داخلية" في مدرسة الألسن، يأكلون

ويشربون ويلبسون وينامون ويتعلمون على حساب الدولة، ومعهم ثلاثة مدرسين فرنسيين، ومدرسون من علماء الأزهر لتدريس اللغة العربية، ومدرسون للمواد الأخرى وعلى رأسهم الشيخ رفاعة.

ليس من السهل إنشاء مدرسة كهذه، فهي تسبب مشاكل لا تنتهي: طلبة من الأرياف «بعَبَلهم»، لم يروا إلا زرعهم وضرعهم وبيتهم المتواضع الذي تنام فيه الجاموس والبقر بجوارهم، وفيهم من تزوج وله أولاد، وفيهم من لم يبلغ الحلم، يدخلون فجأة هذا القصر المنيف، ويراد منهم أن يعيشوا عيشة نظامية نظيفة، ويجلسون أمام مسيو «بتيير» يتعلمون منه الفرنسية! يا لها من معجزة! والشيخ علي الفرغلي الأنصاري يخلع حذاءه ويشمِّر ويتوضأ، ويخلع جبته، ويفرشها على الأرض، ويصلي الظهر في حجرة واحدة مع مسيو «ديزون».

وأحمد عبيد الطحطاوي الطالب في المدرسة يبصق على أرض الحجرة المصنوعة من «الباركية» -عقليات

مختلفـة في الطلبة، وعقليـة متباينة في الأسـاتذة، ويُطلَب من كل هذه العناصر المتناقضة أن تكوّن وحدة.

لا بـأس، فالشـيخ رفاعـة قادر عـلى كل ذلـك، وقد مـر بهـذه الأدوار كلهـا وعـرف عقلياتها، فهو مسـتطيع مواجهتهـا ومعالجتهـا، هـو ملتقـى العقليـات المختلفـة والتقاليد الاجتماعية المتباينة.

غريب أمر الشـيخ في المدرسة -رزقه الله صحة جيدة لا تمـل، ورزقه قلة النوم، ورزقه الطبع الفرح المرح الذي يسـتعذب النكتة ويضحك لهـا من أعماق قلبه ويشـارك في صنعهـا، بـكل ذلك يملأ جو المدرسـة، هو أب رحيم لـكل الطلبة، وأخ كريم لكل الأسـاتذة. هو حركة دائمة لا تتقيد بميعاد ولا جرس، يحلو له أحيانًا أن يعقد درسًـا بعـد العشـاء أو في ثلـث الليل الأخير فيفعـل والطلبة في إقبال على التحصيل، والأساتذة في إقبال على الدرس.

فإذا نال الطلبة قسطًا لا بأس به من الفرنسية والعربية مرنهم على الترجمة، ولكن لا يمرنهم بموضوعات تكتب

في كراساتهم ثم تطرح، بل في كتب نافعة يترجمون منها ما استطاعوا، فإذا وقفوا في فهم جملة أو لم يستطيعوا ترجمتها رجعوا إلى الشيخ فساعدهم، ثم عرضوا ما ترجموا على أستاذ اللغة العربية يصحح لغتهم، وخاصة الشيخ محمد قطة العدوي، فقد كان ساعده الأيمن في هذه المدرسة بفضل ما منح من قدرة على التدريس بلغة سهلة، وعبارة فصيحة وقدرته الفائقة على تصحيح عبارات الطلبة فيما يترجمون. فإذا أتموا الكتاب أو الكتب روجعت ثم قدمت إلى المطبعة لتطبع، فتكون أثرًا خالدًا.

فأنت يا أبا السعود أفندي ترجمْ لنا هذا الكتاب وسَمِّهِ «نظم اللآلي في السلوك، فيمن حكم فرنسا من الملوك»؛ وأنت يا خليفة أفندي محمود ترجم لنا «إتحاف ملوك الزمان في تاريخ شارلكان»، فإذا فرغت منه فترجم «المُشْرق في المنطق»؛ وأنت يا محمد أفندي مصطفى البَيَّاع ترجم لنا «مطالع الشموس في وقائع كرلوس» ملك السويد؛ وأنت يا أحمد أفندي عبيد ترجم لنا «الروض

الأزهر في تاريخ بطرس الأكبر» وهكذا.

واسمعوا ما يقوله هذا الأخير في كتابه؛ لأنه يدل على منهج العمل: «كنت تحت إرشاد مدير مدرسة الألسن، المؤيد برعاية الملك المبدى، السيد رفاعة أفندي، فأجاد تربيتي كغيري، حتى حسن حالي وسيري، وتعلمت بإرشاده اللغتين الفرنساوية والعربية.. فبعد أن رأى في التعليم حسن حالي، واجتهادي في نيل المعالي بين أمثالي، اقتضى رأيه المؤيد، وحزمه المعضد، أن أترجم كتابًا من كتب التاريخ، فاختار ملكًا من ملوك الإفرنج تعلو همته على المريخ، وهو تاريخ بطرس الأكبر، الذي فضله أشهر من أن يذكر، لمؤلفه الشهير المسمى فولتير، الذي يعد بين أكابرهم أعظم حجة، وإن كان عن الأديان بعيد المحجة، فجاء التعريب بحمد الله على أحسن حال، وأتم منوال، وقد شرعت في نقله من الفرنساوية إلى العربية، مع إعانته لي في حل مشكلاته، وما عسر عليَّ من غوامضه ومعضلاته.. وقد صرفت في ترجمته على صعوبته الهمة،

وسهرت في مطالعته وفهمه الليالي المدلهمة.. مع ما يضاف إلى ذلك من كون هذا التاريخ معدودًا من التواريخ السياسية المشحونة بالوقائع والحوادث البوليتيفية، ومؤلفه من كبار المتفلسفين من العيسوية، ومن عظماء فصحاء الدولة الفرنساوية، ولا أقول مع ذلك إنه خلي من الخلل، أو عَرِيّ من الخطل، فإن ذلك ليس في طاقة الإنسان، الجامع في اشتقاقه حروف النسيان.

وبعد سنوات تخرجت هذه الدفعة الأولى، فشهدت مصر منها نموذجًا لم تشهده من قبل، شباب متعلم لغة عربية ولغة أجنبية، ومثقف ثقافة أدبية -جغرافية وتاريخية. وكل ذلك تَعلّمه في مصر لا في أوروبا، ولذلك تلقفتهم المصالح المختلفة التي تحتاج إلى هذا النمط من الموظفين، فكنت ترى -فيما بعدً -هؤلاء المتخرجين في الدفعة الأولى، يشغلون مناصب هامة مختلفة، هذا عبد الله أفندي أبو السعود أكبر رجال الترجمة في مصر، ومدرس التاريخ العام بدار العلوم، وهذا محمد أفندي عبد الرازق

كاتب سر الحضرة الخديوية، وهذا شحاته عيسى أفندي قد تخصص بعدُ في العلوم الرياضية والحربية، وكان ناظر مدرسة أركان حرب، وهذا أحمد عبيد أفندي وكيل مجلس التجار بالمحروسة، وهذا حسن فهمي أفندي وكيل السكك الحديدية بالأقطار الصعيدية، وهذا السيد عثمان الدويني القاضي، وهذا مصطفى رضوان مدرس اللغة الفرنسية بمدرسة الطب، إلخ إلخ، ولو رأيتهم يوم دخلوا المدرسة بجلابيبهم وسذاجتهم ورأيتهم يوم تخرجوا بعد سنوات قلائل، لأخذ منك العجب كل مأخذ، وهتفت بحياة «الشيخ رفاعة».

وقد استفاد هو نفسه من هذه التجربة الأولى، فأخذ يصلح الأخطاء ويوسّع الاختصاص وينوّع العمل.

فألحقت بمدرسة الألسن مدرسة تجهيزية تعد الطلبة للدخول بها بدل أبناء المكاتب، وأدخلت اللغة الإنجليزية ضمن اللغات التي تدرس فيها، وتوسع في قبول الطلبة حتى بلغ من فيها مائة وخمسين طالبًا، وأنشئت بالمدرسة فروع

مختلفة، مدرسة فقه وشريعة إسلامية يدرس بها القانون الفرنساوي والفقه الإسلامي، ومدرسة محاسبة ومدرسة إدارة أفرنجية، وكل هذه المدارس يسوسها ويديرها الشيخ رفاعة، ويُحل فيها المصريين أساتذة محل الأوروبيين.

سبع عشرة سنة يعمل في هذه المدارس، كالنحلة لا يَمَلّ، فأمور إدارية، وقيام بترجمة كتب، وإشراف على ما يترجمه غيره، وفي كل حين يُضم إليه عمل آخر جديد، فيعهد إليه الإشراف على جريدة الوقائع المصرية، والكتبخانة الإفرنجية، ومخزن عموم المدارس، ويفتش على المدارس، ويشرف على الامتحانات العامة في آخر السنة، ويحبِّر الخطب تخطب فيها، حتى كوّن جيلًا جديدًا هو -من غير شك -أثر مجهوده ونتيجة إخلاصه، وتغير وجه مصر من الناحية العلمية والأدبية، فجملة ما ألفه وترجمه هو وتلاميذه بين مطبوع وغير مطبوع، نحو ألفي كتاب، هي خميرة نهضتنا، وعماد ثقافتنا. يدين له رجال الأدب بما كوَّن لهم من أمثال إبراهيم بك مرزوق الناظم

الناثـر المشـهور، ومحمد عثـمان جلال، صاحـب العيون اليواقـظ ومترجم قصـص لافونتين، وقبـول وورد جنة إلـخ، وصالح مجدي؛ ويدين له رجـال القانون بما أخرج لهم من أمثال قدري باشـا مقنن الشريعة الإسلامية بكتبه الأحوال الشخصية، وقانون العدل والإنصاف، ومرشد الحـيران؛ ويدين له الرياضيون بأمثال محمد بك الشـيمي وتأليفه في الحسـاب والهندسة، إلى ما لا يحصى من رجال الفكر في كل فرع من فروع العلم.

***

زهَـت له الدنيا، فهو ناجح في عمله، والولاة مقبلون عليـه مقـدرون لجهـده، والمنح تتـوالى عليـه، فكلما تقدم تلاميذه ومنحوا ألقابًا لم يرض أولو الأمر إلا أن يمنحوه ألقابًـا أعـلى منهم، حتى تقـدم مرة بجزء آخـر من ترجمة كتاب ملطبرون إلى محمد علي باشـا فمنحه رتبة أميرالاي ورفـع مرتبـه إلى ١٣٠٠٠ قرش صاغ في الشـهر، ومنحه ٢٥٠ فدانًا في بلده طهطا إحسانًا بإحسان.

ولكن الدنيا لا تدوم على حال، والعيش -أبدًا- حلو ومر، «والدهر ذو غلظة حينًا وذو لين»؛ فهذا عباس باشا الأول يأتي فيقف حركة التعليم ويبطل المصانع والمعامل، رغبة -فيما زعم -في الاقتصاد، ولم يُبق للتعليم إلا مدارس قليلة جدًا، وكان فيما ألغى مدرسة الألسن والشيخ رفاعة، وإذ كان الشيخ أكبر منبع للتعليم، كان أحق الناس بالمقت، وإذ كان أحب شيء إلى الشيخ العلم والتعليم، فأبغض الناس إليه من يلغي العلم والتعليم. وجاء رجال السوء الذين يزينون للرؤساء كل ما يهوون، ويخترعون المنطق لكل ما يرغبون، فإذا قالوا أسود، أتوا إليهم بألف دليل على أنه أسود، وإذا قالوا أبيض، أتوا إليهم بألف دليل على أنه أبيض، وإذا قالوا أسود أبيض لم يعدموا ألف دليل آخر على أنه أسود أبيض. كالذي يروي أن طاهيًا سأل سيده يومًا:

ماذا نطبخ اليوم؟

السيد: والله لا أدري، أنطبخ باذنجانًا؟

الطاهـي: الله! نعم ما ذكرت، إنه لذيـذ الطعم، مفيد للجسم.

السيد: ولكنه يتعب معدتي.

الطاهي: صدقـت، ما أثقله، وما أعـسر هضمه، وما أقل فائدته.

السيد: يا رجل! إنك من لحظة تمدحه وتقر بفائدته!

الطاهـي: اسـمع يـا سـيدي، أنـا خادمـك أو خـادم الباذنجان!

كذلك شم هؤلاء رغبة الوالي في إقفال المدارس، فاستطاعوا أن يجدوا ألف دليل على ضرر العلم وضرر التعليم، وطعنوا في الشيخ رفاعة بأنه قليل الفائدة، عقيم الطريقة.

فـإذا الأمر يصـدر بنفيه إلى الخرطوم تحت سـتار إنشـاء مدرسـة ابتدائيـة هنـاك وتعيينـه ناظرهـا ومعـه طائفـة من المغضوب عليهم ولا الضالين. ولم يكن الأمر أمر اختيار كما هو شأننا اليوم، نقبل الوظيفة أو نرفضها، إنما الأمر أمر جزم يقبل الوظيفة، أو ينفى إلى أسوأ من الخرطوم بلا وظيفة.

الشـيخ في الخرطوم بعد باريس، ولم تكن الخرطوم كما نعهد اليوم، نظافة شـوارع، وجمال مساكن، ومدنية وأبهة، إنما كانت مدينة صغيرة لا عناية فيها بالصحة، ولا وسائل متوفرة للعيش، وهو ناظر مدرسة ابتدائية في السودان بعد أن كان ناظر التعليم كله في مصر، وكل يوم يتخطف الموت أحـد معاونيه، حتـى لم يبـق إلا نصفهم أو أقل، والشـيخ يسـتغيث ولا مغيث، فيشـفي غليله في قصائد الاستغاثة، يسـتغيث أولًا بالأمـراء، فـإذا فشـل اسـتغاث بالأوليـاء والأنبياء، ها هو يسـتغيث -أولًا بحسن باشا كتخدا مصر بقصيدة في ستة وثمانين بيتًا، يصف فيها الوشاة فيقول:

مهازيل الفضائل خادَعوني
وهل في حربهم يكبو جوادي؟
وزُخْرُفُ قولِهم إذ موَّهوه
عـلى تزييفه نـــادَى المـنـادي
قياس مـدارسي -قالوا -عقيم
بمصر، فما النتيجة من بعادي؟

ويعجب كيف يقوم لمصر بمثل هذه الأعمال ثم يجازى مثل هذا الجزاء

على عدد التواتر مُعْرَباتي
تفي بفنون سِلْم أو جهاد

وملْطبرونُ يشهدُ وهو عدل
ومنتسْكو يقرُّ بلا تمادي

ومغترفو قَراح فراتِ درسي
قد اقترحوا سقاية كل صادٍ

ولاح لسان باريس كشمس
بقاهرة المعز على عمادي

***

رحلت بصفقة المغبون عنها
وفضلي في سواها في المزاد

وما السودان قط مقام مثلي
ولا سَلْماي فيه ولا سعادي

ويحز في نفسه فرقة أولاده:

وقـد فـارقْـتُ أطـفـالًا صغارًا
بطهطا دون عَـوْدي واعتيادي

أفـكِّـر فيهموا سرًا وجـهـرًا
ولا سَمَري يطيب ولا رقادي

أريـد وصالهم والدهــر يأبى
مواصلتي ويطمــع في عنــادي

وكان الشيخ ماكـرًا حقًـا، فقـد وضـع القصيدة على وزن وقافية:

لقد أسمعــت لـــو ناديت حيًا
ولكن لا حيــاة لمن تنــادي

فلـما لم يُجْـدِه ذلـك أخذ يخمِّـس قصيدة لسـيدي عبد الرحيم البرعي في مدح النبي مطلعها:

خلِّ الغرام لصبٍ دمعُه دمه حيران
توجِدُه الذكرى وتُعْدمه

يقول فيها:

«رفاعة» يشتكي من عصبةٍ سَخرت
لما رأَت أبحر العرفان قد زخَرت
فارفع ظُلامة نفس عدلّك ادخرت
وهاك جوهر أبياتٍ بك افتخرت
جاءت إليك بخط الذنب ترقمه

أربع سنوات في السودان كانت عليه كسِنِي يوسف، ومع هذا يترجم فيها قصة «تليماك»، ويعلّم في مدرسته بعض أبناء السودان وأبناء الموظفين من المصريين، وكانت مدرسته نواة لما أنشئ بعد من مدارس، ولم ينقذه من نكبته إلا موت عباس وتولي سعيد.

(٦)

يعود الشيخ رفاعة من السودان إلى مصر في أول عهد سعيد باشا، ولكن لا تعود مدرسة الألسن -فسعيد لم يُعِد نهضة التعليم كما كانت في عهد محمد علي وإبراهيم، وإن توسَّع بعض الشيء عما كان عليه في عهد عباس الأول- وإنما يعود ناظرًا ثانيًا أو بعبارة أخرى وكيلًا لمدرسةٍ حربية كانت بالحوض المرصود، وكان ناظرها سيف باشا أو سليمان باشا الفرنساوي -مؤسس الجيش المصري ومنظمه، وقائد الجيوش في حروب محمد علي وإبراهيم، وصاحب التمثال في الميدان المسمى باسمه- وكان جبارًا عنيدًا، وقف أمام نابليون، وهو ضابط فقال له: هل أنت سيف الذي حدثوني عن غطرسته؟ فأجاب: إذا كان هذا كل ما تريد أن تقوله لي عدت إلى فرقتي، ثم أعطى ظهره له ورجع إلى مكانه، فرقاه نابليون لجرأته؛ وهو الذي عمل الأعمال الحربية العظيمة في مصر، من

تمريـن المماليك، ثم تمرين المصريـين حتى حذقوا الحرب، وتفوقوا على الجيش العثماني؛ هذا هو الناظر الأول الذي عين ناظره الثاني الشيخ رفاعة فاعْجَبْ لهذا الوضع الذي لا مبرر له إلا أن الشيخ رفاعة «ميرالاي».

ومـع هـذا فقد وسّـع «الشـيخ» نفـوذه العالمـي. فقد وضع مشروع مدرسة بالقلعة تدرس فيها الفنون الحربية والمدنية، وأقره عليها سـعيد باشـا، فاختار لها المدرسين، وراعـى في كل ذلـك مـا يشـوّق الأهلين للإقبـال عليها وإدخـال أبنائهم فيها؛ ثم امتد نفـوذه فأعيد قلم الترجمة، وهو أشـبه شيء بمدرسـة الألسـن، وجعل مشرفًا عليه؛ وأحيلت عليه نظارة مدرسـة المحاسـبة والهندسة الملكية والمعمارجية؛ وأحبه سـعيد باشا وقربه جدًا إليه، واستمد الشيخ منه نفوذه يوجهه في التعليم ونشره.

وهنـا ذكـر الشـيخ عهـده بالمسـتشرق ده سـاسي، والمسـتشرق كوزن، ومـا يقوم به المسـتشرقون من أعمال قيّمـة في خدمـة اللغـة العربيـة بنشرهم أمهـات الكتب،

فوضع مشروعًا للعناية بتصحيح الكتب القديمة القيمة، وطبعها بمطبعة بولاق وعرضه على سعيد باشا فأجازه؛ وجرد الشيخ محمد قطة العدوي، والشيخ إبراهيم الدسوقي، والشيخ نصر الهوريني وغيرهم، واشترك معهم في اختيار الكتب التي تطبع، والقيام على تصحيحها وطبعها؛ فطُبع بإرشاده «تفسير الفخر الرازي»، و«معاهد التنصيص»، و«خزانة الأدب»، و«مقامات الحريري»، وغير ذلك من الكتب الدينية والأدبية والتاريخية، فكان هذا دعامة أخرى من دعائم النهضة: تأسيس الكتب بعد تأسيس الرجال؛ وأعانه على ذلك معرفته الواسعة بالكتب العربية، غرامه باقتنائها، وإنشاؤه لنفسه مكتبة واسعة غنية بالنوادر.

***

لم تكن كل الأمور ميسرة كما نراها اليوم، بل كان الطريق لكل عمل وعرًا محفوفًا بالمصاعب، فإنشاء مدرسة أو إلغاؤها منوطان بالوالي نفسه، فلا بد في قصائد

مديح ودعوات صالحات وملق أنيق، تُقدَّم للوالي في لفائف من حرير لينشئ مدرسة، ولا بد في أول الكتاب وآخره من ثناء مستطاب، ودعاء للأنجال، وتزلّف لمدير المطبعة ونجله ليتم طبع الكتاب، ولا بد ولا بد في كل شيء، من كل شيء؛ والشيخ ماهر في كل ذلك، يعرف من أين تؤكل الكتف، ويأتي البيوت من أبوابها، فيسهِّل عسيرها ويحلّ عقدتها.

ومسائل العلم نفسها عسيرة كمسائل الولاة والأمراء، فالعلم الحديث قد تقدم، والعلم العربي قد وقف منذ سبعة قرون، وهو إذا أراد ترجمة كتاب حديث اصطدم بالمصطلحات: ماذا منها عرفه القدماء وماذا منها لم يعرفوه؛ وماذا يضع من الكلمات لما لم يُعرف، هل يضع الكلمات الأجنبية كما هي بعد صقلها صقلًا عربيًا، أو يبحث لها عن لفظ عربي؟

لقد حيَّره ذلك منذ كان في باريس، وعندما عُهد إليه ترجمة كتاب في «الفولكلور» أو عادات الشعوب، سماه

«قلائـد المفاخـر، في غريـب عوائد الأوائـل والأواخر»، يتمرن فيه على الترجمة، فاصطدم بأسماء البلاد الإفرنجية والرجال والأشياء، وكان هو لم يعرفها فيرجع إلى المعاجم التي تشرحها، فبم يترجمها؟

لقـد اهتـدى إلى فكرة لطيفـة، هي أن يجعـل للكتاب ملحقًـا يضمّنـه كل الأسـماء الإفرنجيـة التـي وردت في الكتاب، ويرتبها على حسـب حروف المعجم، ويضع لها اسمًا مأخوذًا من اللفظ الإفرنجي، ويصقله صقلًا عربيًا: فللبرازيل «إبرزيلة» بسـكون الموحّدة وكسر الراء بعدها مثنـاة تحتية فزاي مكسـورة فلام فتـاء تأنيث، ثم يأخذ في شرحها وتاريخهـا؛ وأوميروس أو هومـيروس، ويضبط الكلمـة ويعـرِّف بـه؛ وكذلـك البارومتر، والسـبكتاكل ويقـال له "التياترو" اسـم للعبة ببـلاد الفرنج يلعب فيها تقليد سـائر ما يقـع، ويأخذ في شرحهـا في نحو صفحة، وهكذا.

ويـود أن كل مترجـم كتـاب يجرد هـذه المصطلحات

ويعربها كما فعل، ويجمعها في أول الكتاب أو آخره حتى يكون للغة العربية بعد ذلك معجم جامع لكل المصطلحات الإفرنجية، وأسماء البلاد والأشخاص والأشياء؛ وهذا نص كلامه العجيب: «وقد شرحنا الكلمات الغريبة التي توجد في هذا الكتاب، وعرَّبناها بأسهل ما يمكن التلفظ به، حتى يمكن أن تصير على مدى الأيام دخيلة في لغتنا كغيرها من الألفاظ المعرَّبة عن الفارسية واليونانية؛ ولو صنع نظير ذلك في كل كتاب ترجم في دولة أفندينا ولي النعم الأكرم لانتهى الأمر بالتقاط سائر الألفاظ المرتبة على حروف الهجاء، ونظمها في قاموس مشتمل على سائر غريب الألفاظ المستحدثة التي ليس لها مرادف أو مقابل في لغة العرب، فإن هذا مما يفيد التسهيلَ على الطلاب، وبه تحصل الإعانة على فهم كل علم أو كتاب».

أُمنية تمنّاها، وخطة أملاها منذ ١١٦ سنة، لو سرنا عليها لحللنا أكثر مشاكل التعريب التي نعانيها اليوم.

وظل يكافح في هذا الباب كفاح الأبطال، فقد عُهد إليه منذ عودته بأعمالٍ مختلفة تتصل بعلوم مختلفة، فأخذ في كل منها يواجه مشكلة مصطلحاتها، ويضع ما ندين له ببعضها اليوم -يترجم في الهندسة ويضع بعض مصطلحاتها، وكذلك في الطب، والجغرافيا، والتاريخ؛ ويترجم القانون المدني الفرنساوي، ويضع مصطلحاته، وهكذا.

***

بلغ «الشيخ» أوْجَه في عهد إسماعيل، لما عادت الحركة العلمية قوية نشيطة؛ بلغ أوْجَه المالي، فقد منحه إسماعيل ٢٥٠ فدانًا أخرى، فبلغ مجموع ما مُنحه ٧٣٦ فدانًا، واشترى هو ٩٠٠ فدان أخرى، فكان ما يملكه ١٦٣٦ فدانًا، غير العقارات العديدة في القاهرة وطهطا؛ فقد كان في عهدٍ يكافأ فيه الرجل النافع بما يوسّع رزقه، ويوفر جهده لعمله؛ ومع ذلك فهذا الباب أتفه مقوّماته، فقد ذهب الشيخ رفاعة، وأصبحت أطيانه الموقوفة

مصـدرًا لنـزاع لا ينتهـي، ولم يخلِّـده إلا مجهـوده العلمي وآثاره الباقية.

ويبلـغ أوجـه العلمـي، فهـو عضـو مـن أعضـاء «قومسـيون المـدارس»، يضـع برامجهـا، ويـشرف عـلى التعليـم والامتحـان فيها، ويقـول فيه علي باشـا مبارك: «كانت مجامع الامتحان لا تزهو إلا به»، وهو ينشـئ أول مجلة مصرية هي «مجلـة روضة المدارس»، يلتف حوله في تحريرها أدباء مصر وعلماؤها.

ويـرى أن ليسـت هنـاك كتـب للمـدارس تصلـح لمواجهـة النهضـة الجديـدة والعقليـة الحديثـة؛ فالكتـب الأزهريـة لا تناسـب الطلبـة، والكتـب الأدبيـة القديمة مملـوءة بالغث والسـمين، والدنيا كلها تؤسـس تعليمها عـلى النعرة الوطنيـة، والتعريف بمزايـا الوطن وتاريخه، وتسـتنهض همم الناشـئين لخدمته، ولا شيء من ذلك في الكتب العربية.

إذن فليقم هو بكل هذه المهمات.

يؤلّف كتابًا في النحو على نمط جديد، محتذيًا فيه حذو الفرنسويين في تسهيل أجروميتهم، ويسميه «التحفة المكتبية» في القواعد والأحكام والأصول النحوية بطريقة مرضية، ويضع بعض القواعد في شكل جداول يسهل حفظها.

ويضع لمطالعة المدارس كتاب «مباهج الألباب المصرية في مناهج الآداب العصرية»، وهو أول كتاب عربي ينزع إلى الناحية الوطنية، فيذكر معنى الوطن، ومصر ومزاياها؛ وتشغل ذهنه المنافع العامة فيخصص لها أكثر الكتاب، فيذكر كيف تؤدَّى في البلاد المتمدنة، ونبدأ مما قام به بعض رجال المسلمين في سبيل المنفعة العامة، وواجب الأغنياء، وكيف يربي الأولاد، وفصولًا في الاقتصاد المصري: من منابع الثروة وتقسيم الأعمال إلى منتجة للأموال وغير منتجة؛ ويعود إلى المنافع العامة ويقسمها ويبين تاريخها في الأمم وتاريخ مصر إزاءها إلى عهد محمد علي، ويذكر الإصلاحات التي عملها، ثم

يذكر الآمال التي يأملها في المنافع العامة في المستقبل.

ثم خاتمة فيما يجب للوطن الشريف على أبنائه من الأمور المستحسنة.

وهو - في كل ذلك - يجمع بين ثقافته الإسلامية وثقافته الفرنسية.

وينزع إسماعيل إلى تعليم البنات، وتنشأ أول مدرسة لهن في مصر، ولا يرضى عن ذلك الرأي العام المصري المتدين، فيقف الشيخ رفاعة في كتبه يحبذ تعليم البنات، ويرد حُجج المعارضين، فيقول: «ينبغي صرف الهمة في تعليم البنات والصبيان معًا لحسن معاشرة الأزواج، فتتعلم البنات القراءة والكتابة والحساب ونحو ذلك، فإن هذا مما يزيدهن أدبًا وعقلًا، ويجعلهن بالمعارف أهلًا، ويصلحن به لمشاركة الرجال في الكلام والرأي، فيعظُمن في قلوبهم.. وليمكن للمرأة عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الأعمال والأشغال ما يتعاطاه الرجال على قدر قوتها وطاقتها.. وهذا من شأنه أن

يشغل النساء عن البطالة، فإن فراغ أيديهن عن العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل، وقلوبهن بالأهواء، وافتعال الأقاويل؛ فالعمل يصون المرأة عما لا يليق، ويقربها من الفضيلة؛ وإذا كانت البطالة مذمومة في حق الرجال، فهي مذمة عظيمة في حق النساء، فإن المرأة التي لا عمل لها تقضي الزمن خائضة في حديث جيرانها، وفيما يأكلون ويشربون، ويلبسون ويفرشون وفيما عندهم وعندها، وهكذا.

وأما القول بأنه لا ينبغي تعليم النساء الكتابة، وأنها مكروهة في حقهن ارتكانًا على بعض الآثار، فينبغي ألا يكون ذلك على عمومه؛ ولا نظر إلى من قال إن من طبعهن المكر والدهاء والمداهنة، فتعليم القراءة والكتابة ربما حملهن على الوسائل الغير المرضية.. فمثل هذه الأقوال لا تفيد أن جميع النساء على هذه الصفات المذمومة، وكم من نهي وردت به الآثار كمقاربة السلاطين والتحذير من الغنى، وقد حمل كل ذلك على ما يعقبه شر وضرر

محقق؛ وتعليم البنات لا يتحقق ضرره، وكيف ذلك وقد كان من أزواجه صلى الله عليه وسلم من يكتب ويقرأ، كحفصة وعائشة.. إلخ إلخ.

ألست ترى معي أن هذه نظرة صادقة، ودعوة جريئة كانت قبل «قاسم أمين» بنيّف وثلاثين عامًا؟! وقد ملأ «الشيخ» هذا الفراغ بتأليف كتاب للمطالعة يصح أن يوضح في يد الفتى والفتاة سماه «المرشد الأمين للبنات والبنين».

***

وقد يكون «الشيخ» في شعره ضعيفًا أشبه ما يكون بشعر الفقهاء، وقد لا يبلغ في نثره مبلغًا عاليًا، فكثيرًا ما يتعثر في السجع المتصنّع، ويشد أنواع البديع شدًا؛ وينبو ذوقه أحيانًا في كتابه «المرشد الأمين للبنات والبنين» في تعرضه لموضوعات لا يصح أن توضع في يد البنات، كفصلِه في «البكارة والثيوبة» ونحو ذلك؛ ولكن من العدل إذا قسناه أن نقيسه بزمنه، وبمن قبله لا بمن بعده -فقد نشأ في زمن يُعَدُّ فيه «مَن فكَّ الخط» كاتبًا، وعالم

الأزهـر الـذي يقرأ «المطـوّل» و«الأطـول» في البلاغة لا يحسن أن يكتب خطابًا لأمِّه أو أبيه.

عـلى أن قيمة «الشـيخ» الكبرى ليسـت في أسـلوبه، أو شـاعريته أو ناثريتـه، إنما هـي في أنه نشر العلم في أوسـاط فسيحة، وأسس نهضة علمية متوثِّبة، وفتح للمتعلمين آفاقًا واسعة لم يكن لهم بها عهد، وذوَّقهم معنى العلم الصحيح، وشوّقهم للاستزادة منه، وبصَّرهم بعيوبهم، وأبان المناهج لتكميل نقصهم؛ وليس ذلك بقليل على رجل.

❋ ❋ ❋

أربعـة وأربعون عامًا تقريبًا منـذ عاد من باريس وهو في هـذا العمل الدائـب والحركة التي لا تنقطع في التعليم والتأليـف والترجمـة والنـشر، حتـى أوفى عـلى الخامسـة والسبعين، وقد دهمه الدهر الذي لا يرحم، فلفع بالشيب رأسه، وأحنى قوسه.

وفي ليلـةٍ فاجأه مرض «البروسـتاتا» أو التهاب المثانة فعولج حتى شفي، ثم عاوده واشتد عليه؛ وفي أول ربيع

الثاني سنة ٢٩/ ١٢٩٠ مايو سنة ١٨٧٣ حُصر بوله، تسمَّم دمه، أسلم لخالقه روحَه -سرى البرق بنعيه- اهتزت مصر لموته، احتشد لتشييع جنازته الألوف المؤلفة من رجال المعارف والأمراء والنبلاء وتلاميذ المدارس.

وازدحمت الشوارع بالناس يردون بعض جميله: يذكره الأزهريون على أنه ابنهم، والمتعلمون المدنيون على أنه أبوهم، والجالية الفرنسية على أنه أخوهم، والمصريون كلهم على أنه مؤسس نهضتهم؛ وكلهم بتوجع لفقده، ويشيد بذكره.

وسار المشهد من منزله بالمهمشا، حتى إذا قارب المدينة كان ينتظره شيخ الأزهر وعلماؤه وطلبته، فاشتركوا في تشييع الجنازة، ووضع النعش في القبلة الجديدة، ولا يكون ذلك إلا لعظيم، وأخذ الأفاضل في رثائه بالقصائد والخطب، ثم حُمل إلى «بستان العلماء»، حيث طويت صحيفته، وبقيت آثاره خالدة تعظم وتتزايد وتتوالد -رحمه الله- فقد صنع لأمته كثيرًا.

ملحق:

محطات رئيسية في سيرة الشيخ رفاعة الطهطاوي ١٢١٦/ ١٨٠١

ولد رفاعة الطهطاوي في طهطا (بصعيد مصر) في نفس العام الذي عادت فيه الحملة الفرنسية (١٧٩٨-١٨٠١).

(١٢٣٢-١٢٥٠هـ/ ١٨١٧-١٨٢٤):

الطهطاوي يدرس بالأزهر بالقاهرة على الشيوخ: الفضالي (ت ١٢٣٦)، وحسن القويسني (ت ١٢٥٦)، والبخاري (ت ١٢٥٦)، والباجوري (ت ١٢٧٧)، ومحمد حبيش (ت ١٢٦٩)، والدمنهوري (١٢٨٦)، وأكثرهم تأثيرًا في فكر الطهطاوي هو الشيخ العطار (ت ١٢٥٠).

(١٢٣٧/ ١٨٢١): ألَّف الطهطاوي:

- أرجوزة في التوحيد (لم تنشر).

– خاتمة لقطر الندي وبل الصدى (كان خال رفاعة عبد العزيز الفرغلي الأنصاري قد نظم الكتاب، وطبع هذا مع المتن ١٢٨٢، ١٣٣٣٠)، (لم تنشر).

١٨٢٤/١٢٤٠

تعيين الطهطاوي واعظًا في الجيش المصري.

***

١٨٢٦/١٢٤١ ترشيح الشيخ حسن العطار للطهطاوي واعظًا لطلاب البعثة، وسفره بحرًا إلى فرنسا، وبدء تعلمه للغة الفرنسية.

١٨٢٧/١٢٤٢ ترجمة قصيدة «La lyre brisée» تأليف: يوسف آجوب (نظم العقود في كسر العود، ط باريس ١٢٤٢).

١٨٢٧/١٢٤٢ (١ أغسطس) نجاحه في امتحان اللغة الفرنسية، ومكافأته بكتاب: «رحلة انخرسيس في بلاد اليونان».

١٨٢٩/١٢٤٢ ترجم تقويم مصر والشام الذي وضعه جومار.

١٢٤٥/ ١٨٣٠ إتمام ترجمة كتاب: - Depping Mo urs et usages des nations (قلائد المفاخر في غريب عوائد الأوائل والأواخر، ط بولاق ١٢٤٩). يبحث في الحياة اليومية عند الشعوب، قدم له الطهطاوي بمعجم صغير في ١٠٥ صحف [صفحات]، أوضح فيه المصطلحات وأسماء الأماكن والأعلام غير المعروفة حتى ذلك الوقت في اللغة العربية.

١٢٤٦/ ١٨٣١ أداء الطهطاوي للامتحان النهائي العام على يد لجنة خاصة في باريس، ومناقشته في الفصول التي ترجمها إلى العربية وتقدم بها للامتحان، مع فصول أخرى كتبها عن رحلته.

١٢٤٦/ ١٨٣١ عودة الطهطاوي إلى مصر، وتعيينه مترجمة للغة الفرنسية بمدرسة الطب.

١٢٤٩/ ١٨٣٣ (افتتحت ١٢٤٢) بأبي زعبل تحت رئاسة كلوت بك.

١٢٤٨/ ١٨٣٢ ترجمة ونشر: كتاب المعلم فرارد في المعادن النافعة.

١٢٤٩/ ١٨٣٣ الطهطاوي في وظيفة مترجم بمدرسة المدفعية بطرة.

(١٢٥١/ ١٢٣٥)

١٢٤٩/ ١٨٣٤ ترجمة ونشر كتاب: «مبادئ الهندسة» = «هندسة سانسير»، أعيد طبعه ١٢٥٩، ١٢٧٠.

١٢٥٠/ ١٨٣٤ نشر مجموعة فصول مترجمة في الجغرافيا، بعنوان: «التعريبات الشافية لمريد الجغرافية». ترجمة المجلد الأول من كتاب: جغرافية ملطبرون.

١٢٥٠/ ١٨٣٤ ط ١٢٥١ Malte Brun Geographie Universelle

نشر كتاب: «تخليص الإبريز في تلخيص باريز».

١٢٥١/ ١٨٣٥ نقله ناظرًا لمكتبة المدرسة التجهيزية بالقصر العيني (١٥ ألف مجلد بالفرنسية والإيطالية) ورئيسًا لفرقة تلامذة الجغرافيا

١٢٥١/ ١٨٣٥ إنشاء مدرسة المترجمين (مدرسة الألسن) بإدارة رفاعة الطهطاوي. (وضعت للمدرسة

قوانين جديدة ١٨٣٦ - ١٨٣٧).

١٢٥٤/ ١٨٣٨ تأليف كتاب: «جغرافية عمومي في كيفية الأرض».

١٢٥٤/ ١٨٣٨ ظهور الطبعة الثانية من كتاب: «التعريبات الشافية لمريد الجغرافية». مراجعة ترجمة ونشر كتاب: «بداية القدماء وهداية الحكماء»، هذا أول كتاب حديث ينشر باللغة العربية في التاريخ القديم.

١٢٥٥/ ١٨٣٩ ترجمة تخليص الإبريز إلى التركية بعنوان: سفارت نامه رفاعة بك (طـ بولاق).

١٢٥٦/ ١٨٤٠ تخريج أول دفعة من مدرسة الألسن (٢٠ طالبا).

(١٢٥٧-١٢٦٧هـ/ ١٨٤١-١٨٥٠):

الطهطاوي يعمل بمدرسة الألسن بالأزبكية، ويدير المدارس الموجودة إلى جانبها: «مدرسة التجهيزية»، «مدرسة فقه وشريعة إسلامية»، «مدرسة محاسبة»، «مدرسة إدارة إفرنجية».

الطهطاوي يشرف على القسم العربي بالوقائع المصرية (أسست سنة ١٢٤٤هـ) إلى إغلاقها.

(كان الطهطاوي في هذه الفترة ناظرًا لمدرسة الألسن يدرس اللغة العربية، الإدارة، الشريعة، القوانين الفرنسية) ويعد للطلاب كتبًا تعليمية ومختارات أدبية (شرح لامية العرب، مختصر معاهد التنصيص، المذاهب الأربعة في الفقه، وكلها لم تطبع)، ويراجع ما يترجمه تلاميذه من الكتب بجانب قيامه بأعمال الترجمة والتأليف وكثير من الأعمال الإشرافية في مجال التعليم.

١٢٥٨/ ١٨٤١ تشكيل قلم الترجمة من خريجي مدرسة الألسن.

١٢٥٩/ ١٨٣٤ نشر كتاب: «مبادئ الهندسة» ترجمة الطهطاوي، وبآخره معجم يتضمن بعض المصطلحات الهندسية.

١٢٦٠/ ١٨٤٤ إعادة تنظيم قلم الترجمة، وتقسيمة إلى قسمين تركي وعربي وتعيين الطهطاوي رئيسًا للترجمة

العربية.

١٢٦٢/ ١٨٤٦ طبع الجزء الثالث من جغرافية ملطبرون.

١٢٦٣/ ١٨٤٧ مراجعة: تعريب الأمثال في تأديب الأطفال، ترجمة عبد اللطيف أفندي.

١٢٦٥/ ١٨٤٩ الطبعة الثانية من: تخليص الإبريز في تلخيص باريز (في أوائل عهد عباس).

١٢٦٦/ ١٨٤٩ مراجعة ترجمة كتاب: «الروض الأزهر في تاريخ بطرس الأكبر».

١٢٦٦ / ١٨٤٩ نوفمبر إلغاء مدرسة الألسن

١٢٦٦/ ١٨٥٠ إلغاء "الوقائع الرسمية"

١٢٦٧/ ١٨٥٠ نقل رفاعة الطهطاوي إلى السودان ناظرًا لمدرسة ابتدائية بالخرطوم، وظل رفاعة هناك أربع سنوات ترجم فيها رواية فينيلون: - Fénélon Les Aventures de Telemaque

(مواقع الأفلاك في وقائع تليماك، ط بيروت). وهي

روايــة تعليميــة تقـوم على الـتراث اليونـاني، وضمنها فينيلون آراءه السياسية ومعارضته للحكم المطلق.

١٢٧٠/ ١٨٥٤ وفـاة عبـاس وتـولي سـعيد وإلغـاء المدرسة الابتدائية بالسودان، وعودة رفاعة إلى مصر.

١٢٠/ ١٨٥٤ إعادة نشر كتاب: «مبادئ الهندسة».

(١٢٧١/ ١٨٥٥- ١٢٧٧/ ١٨٦٠)

تعيـين رفاعـة وكيـلا للمدرسـة الحربية ثم ناظـرًا لها (١٢٧٧/ ١٨٥٦) فأدخل إلى المدرسة الحربية علوم اللغة والآداب والرياضيـات إلى جانـب التعليـم العسـكري وألحـق بهـا قلما للترجمة، ثـم ألغيت المدرسـة وما بها نشر ثلاثة كتيبات بعنوان: منظومة وطنية مصرية

١٢٨٠/ ١٨٦٣ إعـادة قلـم الترجمـة وتعيـين رفاعة ناظـرًا لـه يخطـط لترجمـة الكتـب العسـكرية للمدارس الحربية ويراجعها (عهد إسـماعيل). طبع منظومة: «جمال الأجرومية» في النحو.

١٢٨٣/ ١٨٦٦ ترجمة وطبع القانون المدني الفرنسي.

١٢٨٥/ ١٨٦٨ ترجمة وطبع قانون التجارة الفرنسي.

١٢٨٥/ ١٨٦٨ صدور كتاب: «أنوار توفيق الجليل في أخبار مصر وتوثيق بني إسماعيل». هذا أول كتاب علمي حديث يؤلف باللغة العربية في التاريخ القديم اعتمد فيه الطهطاوي على نتائج البحوث الأثرية والتاريخية حتى عصره.

١٢٨٦/ ١٨٦٩ صدور كتاب: «التحفة المكتبية لتقريب اللغة العربية» هذا أول عرض عربي حديث للنحو، لم يؤلف بطريقة المتن والشروح، كما فعل معاصرو رفاعة بل هو كتاب تعليمي سهل العرض به جداول ايضاحية كثيرة على نمط الكتب الاوربية في النحو الفرنسي والنحو العربي.

١٢٨٧/ ١٨٧٠ تأسيس مجلة «روضة المدارس»، نصف شهرية بإشراف الطهطاوي، وقد نشر الطهطاوي بها مقالات ثقافية كثيرة وفصولًا جمعت بعد ذلك في كتب.

١٢٧٨/ ١٨٧٠ بداية نشر فصول كتاب: (القول

السـديد في الاجتهاد والتقييـد)، و«رسالة البدع المتقررة في الشيعة المتبربرة» بمجلة روضة المدارس.

١٢٧٨/ ١٨٧٠ صـدور كتـاب «مناهـج الألبـاب المصريـة في مناهـج الآداب العصريـة» هــذا أول كتاب عـربي حديـث في التثقيـف السـياسي والاقتصـادي والاجتماعي وبه اقتباسات كثيرة من كتب الأدب العربي إلى جانـب معلومـات اسـتقاها الطهطاوي مـن الكتب الاوربية.

١٢٧٨/ ١٨٧٢ صـدور كتـاب: «المرشـد الأمـين للبنات والبنين».

هـذا أول كتـاب عـربي حديـث في التربيـة عمومـا وتعليـم البنـات بصفـة خاصـة، اعتمـد فيـه الطهطاوي عـلى الدراسـات الأوروبيـة في التربية في عـصره وضمنه اقتباسـات كثيرة من المؤلفات العربية في الدين والأدب. واهتـم فيـه أيضًا بجوانـب مختلفة مـن التربية السياسـية والتربية الدينية.

(١٢٩٠-١٢٩١هـ/ ١٨٧٣-١٨٧٤):

صدور كتاب «نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز». وهو كتاب في سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ونظام الدولة الإسلامية، بعد أن نشر في فصول في مجلة (روضة المدارس). وهذا الكتاب ثمرة بحث عميق في سيرة الرسول «ص» وفي نظام الدولة في الإسلام.

(١٢٩٠هـ/ مايو ١٨٧٣):

وفاة الشيخ رفاعة الطهطاوي عليه رحمة الله، وجازاه الله خير الجزاء عما علم ونفع البلاد والعباد.

طبع بمطابع دار المعارف